فيليب فلاندران

كيفَ نُهِبَ العراقُ

حضارةً وتاريخاً



كيف نُهِبَ العراق
حضارة وتاريخاً

فيليب فلاندران

كيف نُهِبَ العراق
حضارةً وتاريخاً

تعريب
انطوان إ. الهاشم

عويدات للنشر والطباعة
بيروت ــ لبنان

ص ب 628 بيروت ـ لبنان ـ تلفون 616033 3 961 ـ تلفاكس 853757 1 961
E.mail:editions_oueidat@hotmail.com

ISBN 9953 - 28- 057-6

رقم التسجيل في الترقيم العالمي 28 ـ 9953 ISBN

الطبعة الاولى 2005



خارطة العراق

مقدمة

كان من أسباب انهيار الدولة العراقية، في نيسان/ إبريل 2003، تحطم النظام العام الذي كانت أولى نتائجه نهباً عامًا للخيرات الخاصة والعامة في مجمل البلاد. وكان يمثل بين الأماكن التي استهدفها أكثر ما استهدفها اللصوص والمجرمون من كل جنس ولون المصارف والمتاحف والمكاتب والأماكن الأثرية الغنية بكنوز لا تقدر بثمن. لقد اختفت عاديّات لا عديد لها تَشهد لتاريخ ما بين النهرين، ولما قبل تاريخه ولا تزال تختفي حتى هذه اللحظة. وتعترف السلطات نفسها بأن حفريات وتنقيبات غير شرعية تجري باستمرار في المدن القديمة مثل سومر وأكّاد وأشور. وتلك، لعمري، خسارة لا تعوض ليس فقط بالنسبة إلى العراق ولكن أيضاً بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء. وإنها المرة الأولى، منذ الحرب العالمية الثانية وسياسات النهب والاغتصاب التي مارسها هتلر وستالين، التي تُفرض فيها الخوّات على إرث أمة بكامله.

والفرق ـ وهو هنا جسيم ـ أن مرتكب هذا الإثم الفظيع، هذه المرة، ليس المحتل، لكنها المافيات التي تهيمن اليوم على النهب والتهريب العالمي للتحف الفنية والعاديّات، هذا التهريب الذي لا يبزّه أهمية، في أيامنا هذه، سوى تجارة المخدرات. وقد شاهدنا، هذه الأيام، تلك المنظمات الخفية ذات الفروع المتشابكة التي تنشط في البلدان التي اجتاحتها الحروب مثل كمبوديا وأفغانستان. لكن الأمر الذي كان حِرَفياً تحوّل مع العراق صناعياً.

ثم إننا لم نرَ، فيما سبق، جيشاً ديمقراطياً جرّاراً، مثل جيش الولايات المتحدة، مكرهاً على ترك الأمور سائبة على مدى الأسابيع الأولى من نيسان/ إبريل، في حين كان العراق ينتهب تحت سمعه وبصره، وذلك بسبب انعدام الأوامر المعطاة له.

لقد انطلقت حينذاك آلة جهنمية، فهل بالإمكان إيقافها؟.

هذا ما حاولنا جاهدين أن نفهمه، بقيامنا بتحقيقات، بوسائل فعالة أحياناً، وأحياناً أخرى بوسائل صحفية تثير السخرية.

بدأ التحقيق بأبحاث في المكتبة الوطنية في فرنسا حيث عثرنا على مستند تاريخي وأثري من الأهمية بمكان. وتابعنا ذلك في العراق والأردن في حزيران ـ تموز/ يونيو ـ يوليو 2003، انطلاقاً من تقرير أجري بمعاونة مارك دوفيل، المصور الصحفي

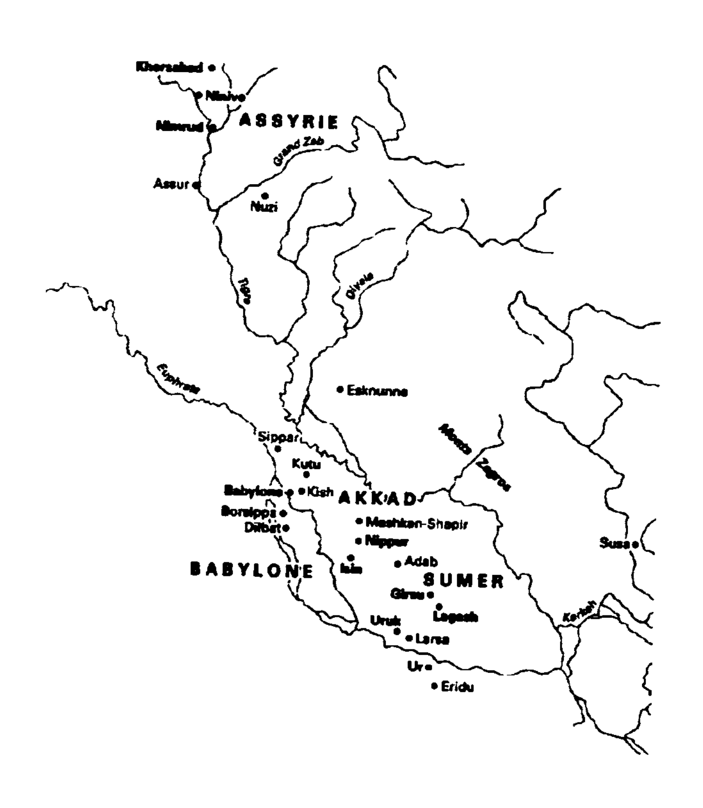
في وكالة غامّا والذي نشر في الشهر التالي في مجلة باري ـ ماتش، واستؤنفت التحقيقات في شهر أيلول/ سبتمبر، بعد عودتنا من باميان، أفغانستان وتركزت على موقف الحكومة الأميركية قبل نهب نيسان/ إبريل 2003 وأثناءه وبعده. وقد أتاحت اتصالات، في لندن وباريس وليون، بعلماء آثار واختصاصيين في التجارة الممنوعة ورجال البوليس الدولي، إلقاء الضوء على مستند اقتبس من مواقع مختلفة على شبكة الإنترنت.

ليس النهب العام الشامل، في مفهومنا، مجرد أعمال دنيئة معزولة ولا هو نتيجة مؤامرة على مستوى الكرة الأرضية نسج خيوطها دكتور نو جديد. إنه، بالأحرى، ظاهرة تعكس، في حينه، حالة شمولية المجتمع كما هي حال المجتمع العراقي.

إذاً، فلا ينتظرنّ القارىء، هنا، صك آثام، حتى ولو كانت الوقائع المثبتة تحدد من تلقاء ذاتها المسؤولين، كباراً وصغاراً، بل ليس ذلك سوى «انحدار إلى الجحيم» على خطى إنانا السومرية جدّة أفروديت، وحديثاً هركول پوارو في «جريمة في ما بين النهرين» الذي أدعوكم إلى تتبعه هنا.

القسم الأول

نهب بلاد سومر



خارطة بلاد ما بين النهرين القديمة

الفصل الأول

اور وبيت علماء الآثار

صيف 2003، الساعة الرابعة عشرة، على سهل تل عُبيد. وهو أرض فسيحة جرداء تنتشر فيها تلال غريبة ترقد تحتها أرواح أسلاف حضارة بلاد الرافدين. وأمام العربة حافظ الآثار، أمير الحمداني، يتكلم بتحفظ عن ثقافة تل عُبيد التي بزغت هنا في بداية الألف السادس لتنتشر، بالتالي، على مدى ألف وخمسمائة سنة. وقد صنع سكان تل عبيد، باحتكاكهم بثقافات تل حلَف في الأناضول والعربشاهية قرب الموصل، خزَفا نقيًا بألوان قاتمة صدّروه بطرق نهرية وبحرية، بلا شك، إلى شمالي ما بين النهرين وعلى شواطىء الخليج الفارسي العربي وإلى بلاد العرب. وكانوا بإقامتهم في منازل عائلية فسيحة، يحبون تماثيل النساء المصنوعة من الصلصال ويبنون المنصّات التي جُعلت، في الألف الرابع، قواعد للزقُّورات الأولى. هذه الأبراج التي كان الآلهة، باعتقادهم، يسكنون فيها. وعند الممات كانوا يدفنون معهم حليّهم وآنيتهم الفخارية

وأحياناً كلابهم، لزعمهم أنهم يقومون برحلة في العالم الآخر.

«إنهم أجدادنا»، قال ذلك بفخر أمير دوشي، ترجمان حافظ الآثار أمير الحمداني الذي لا يتكلم سوى العربية اللغة الحالية لبلاد ما بين النهرين.

نحن، إذاً، مع ثقافة تل عُبيد، في فجر سومر، الحضارة الأم التي انتشرت جنوب الهلال الخصيب خلال الألف الثالث. وفي أور حيث وصلنا الآن، عند أسفل زقّورة الإله القمر نانّا، أحد أبراج بابل التي تحدّث عنها سفر الخروج، يمكن الاعتقاد أن الليل قد هبط علينا. وكانت هبة ريح واحدة كافية لكي تثور العاصفة؛ وتصادمت الغيوم الثقيلة التي راحت تتكاثف منذ الفجر. وتحت هذا السقف المترامي الأطراف، تحوّل لون الرمل إلى رماديّ، وعصفت الرياح مدوّمة وغاصت ذروة البرج في دردور من الرمال والغبار. توقفت بنا السيارة ذات الطراز الياباني عند نقطة تفتيش للجيش الأميركي على بعد مئتي متر من البناء. أبرز أمير الحمداني وأمير دوشي بطاقاتهما للخفير من النافذة فأعادها إليهما راضياً. كل شيء على ما يرام: فالزائرون قانونيون: إنهم مزوّدون بكتاب توصية، موقّع، بطريقة قانونية، بيد النقيب كريستوفر و. ستوكل، ورئيس الرقيبة هلتون ـ فادنر من كتيبة الشؤون المدنية 402 التي تواكبهم. وأسْلَمْنا السائق، الرقيب إدوارد رويس إلى عاصفة هوجاء. لقد لجأنا، بانتظار

وصول الخفير المكلف حراسة آثار مدينة أور التي يعود تاريخ تأسيسها إلى الألف الخامس، لجأنا إلى أسفل درج ضخم يؤدي إلى المحراب المهيب.

ترتفع زقورة نانّا اثني عشر متراً على قاعدة مستطيلة طولها أربعة وستون متراً وعرضها ستة وأربعون متراً، اكتشفها السير تشارلز ليونارد وولي من المتحف البريطاني، أثناء حملته التنقيبية سنة 1922 ـ 1923 في تلّ المُقَيّر وكان العرب يسمونه الرُبوة أو التلة وكانت تشرف على مدينة أور، وقد غادرها آخر سكانها في القرن الرابع لعصرنا.

جاء في سفر التكوين «وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لَبَناً وننضجه طبخاً فكان لهم اللَّبن بدل الحجارة والخمْر كان لهم بدل الطين» (تكوين 9,3). بهذه الموادّ شيّد أور ـ نامّو، مؤسس السلالة الثالثة في أور قبل ألفين وثلاثمائة سنة من عصرنا، الطابق الأول ثم جاء خليفته شولغي وأضاف إليه طابقين آخرين وتوّجهما ببناء صغير اعتبر مقاماً للإله ـ القمر.

كانت الرقيبة هلتون ـ ڤادنر تبدو، بالرغم من خوذتها التي تعتمرها والبندقية المعلقة على صدرها على شكل رقاص، وكأن جسمها الشَّبحي النحيل، على وشك أن يطير. وكان أمين الآثار أمير الحمداني والمترجم أمير دوشي يقفان، للحيلولة دون ذلك، كستار واقٍ في وجه الرياح. وكان للرقيبة هلتون ـ ڤادنر، الهيفاء الأربعينية نظر معلمات عندما يتخلّين، في الصف، لأسباب

يجهلها التلاميذ، عن مظهرهن الصارم ويتحولن فجأة إلى هادئات حالمات. بماذا تفكر يا ترى؟ ويمر جنديان مطأطئي الرأس والخوذة في يديهما. لقد فوجئنا بالزويعة وهما على القمة. ماذا كانا يفعلان فوق؟ أور مقفلة بوجه المدنيين منذ أن احتلها جيش الولايات المتحدة في شهر آذار/ مارس 2003. لا شك أنهما كانا يراقبان القاعدة البرية الجوية الفسيحة التي يجري تجهيزها في الجهة المقابلة للزقّورة، في السهل المترامي الأطراف الذي يفصلها كثبان صحراء المملكة العربية التي تبدأ هنا.

إنه لشيء مبتذل إلى حدّ ما، لأن هذه الأرض تحفظ في أحشائها آثار أريدو التي كانت، استناداً إلى ميثولوجيا بابلية، أول مدينة بناها الإنسان على هذه الأرض؛ وفيها أصبحت المنصّة الأساسية على مدى الألف الخامس، زقورة. ولشدَّ ما أدهشت الجرافات التي تقلب أرض المدينة وجبّالات الإسمنت التي تغطيها، دومينيك كولون الأمينة النشطة للمتحف البريطاني والمتخصصة في فن الختم الأسطواني، هذا الشيء الصغير العجيب، هذا الطُّلسم والرسالة المرمزة الذي اخترعه السومريون. اكتشفت السيدة الجليلة كولون هذه الورشة منذ عدة أيام فقط على أثر زيارة تفتيش تريد منها أن تضع حدّاً لما يسمّى «مجزرة» هذا المشهد الرائع. وتشهد أرض تل عبيد وأريدو وأور، قبل سقارة بزمن طويل، وبسبب الأبنية والعاديات المدفونة فيها، على ولادة تاريخ للإنسانية توشك آثاره أن تضيع إلى الأبد. ولكن ماذا

تستطيع عالمة آثار إزاء جيش جبار كجيش الولايات المتحدة حتى ولو كانت مبعوثة المتحف البريطاني؟ كم فيلق من الجنود تحت إمرتها؟.

وهذا الحارس الذي لا يأتي دائماً.. لا جدوى من استدعائه في هذه الريح العاتية.. وعند أقدام الزقورة يدور نقاش صاخب مثير للدهشة. الرقيبة هلتون ـ ڤادنر تهتم بالماضي السحيق؛ لم تدرس التاريخ منذ مرورها في «جونيور هاي سكول» ولكنها قارئة مواظبة للتوراة. لقد حملتها معها عندما ذهبت إلى الحرب! يقول سفر التكوين:

«وأخذ تارحُ أبرامَ ابنه ولوطَ بن هاران ابن ابنه وساراي كنّته امرأة أبرام ابنه فخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فجاؤوا إلى حاران وأقاموا هناك» (تكوين 11، 31).

هذه الآية التي عرفت منها أن أور، حيث تقف الآن، هي أيضاً موطن إبراهيم، قد أثارت فيها الحماسة: نجد أنفسنا منذ الصفحات الأولى من سفر التكوين، أننا أمام أبواب الفردوس. وتتساءل الرقيبة عما إذا كان للفردوس وجود. وكانت تتمنى على أمين الآثار أمير الحمداني الذي يعرف جيداً «أور الكلدانيين»، أن يدليَ بدلوه. وينقل الترجمان أمير دوشي حديثه، جذلاً، بحركات دائرية كبيرة تجعله يشبه الدراويش الدوّارين.

وعلى بعد عشرة كيلومترات من هناك، توفّر مدينة الناصرية، التي أمطرتها القذائف الأميركية بغزارة منذ عهد قريب، مشهداً مثالبّاً للفوضى. وعلى شاطىء الفرات الذي ينساب هناك قوياً مهيباً، وعلى مقربة من نهاية سفره الطويل الذي ينطلق من أعالي الأناضول، هناك تناثرت المقاعد العامة قطعاً؛ وواجهات المنازل التي كانت ترنو إلى النهر فقدت أبصارها. وسهل تل عبيد الذي يترامى إلى اللانهاية حول زقورة نانّا لم يعد يرتاده البدو القادمون من صحراء النفود ليصغوا إلى الأساطير القديمة للاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى الإلاهات المعظمات اللواتي طلب الشيطان شفاعتهن بعد أن تلبّس شخصية النبي محمدﷺ. لم يعد يُرى هناك عمال يعملون في ورش الآثار الضخمة التي كان يشرف عليها، فيما مضى، السير ليونارد وولي وماكس مالوان، ومن جاء بعدهما من العراقيين. ولم يعد يُشاهد في المكان سوى أرتال لا تنقطع من الدبابات والشاحنات الضخمة المثقلة بأحمالها يقودها جنود بخوذات ثقيلة وسترات خانقة وحلوق جافة يروحون ويجيئون بحركة لا تنتهي، والأناشيد التي نسمعها ليست زغاريد طيور الفرات، ولكن أزيز الشريط الشائك الذي يقفل منذ الآن منافذ تلك الأرض القفر. لم تعد أور تلك المدينة الملكية القديمة التي هيمنت على سومر على عهد أور

نامو وخلفائه من السلالة الثالثة في الألف الثالث قبل عصرنا، بل أصبحت قاعدة جو - أرضية تهدر فيها شاحنات الجيش الأميركي الضخمة. وتتساءل الرقيبة هلتون ڤادنر عما إذا كان للجنة من وجود...

والصحيح، أيضاً، أنه على بعد مئات الأمتار من هذا البحر من الرمل تطفو آثار ما كان ربّما بيتاً لإبراهيم. ويكاد الإنسان لا يميز، في هذه العاصفة الهوجاء، الجدران التي رممها، بعشوائية، معماريّو صدام حسين الذي كان يأمل في أن يستقبل يوماً بابا الكنيسة الكاثوليكية والرومانية. «في البدء كان الكلمة...». وكان الترجمان، أمير دوشي، القارىء النهم، يفضل مقولة سيغموند فرويد ونظريته الخاصة بالأفعال الناقصة. وقضية الجيش الأميركي هي أبعد من أن تثير غضبه، إنها، على العكس، تسبب له الرضى والارتياح. كان صدام، بالنسبة إليه، شيطاناً مريداً وكان العراق جهنم حقيقية. ويبقى الأمل الذي أعطاه إبراهيم. وهكذا أصبحت «أور الكلدانيين»، المحررة على يد «عشاق التوراة» الأميركيين، بنظرهم أبواب الفردوس. ذاك ما يلقّنه أمين الآثار لأناه الأعلى. يشكل أمير الحمداني، كما يشكل أمير دوشي، جزءاً من إحدى هذه العائلات القبلية الكبيرة التي تتقاسم منذ أجيال جنوب هذا البلد الذي يسمّى، اليوم، العراق. هذه العائلات هي عموماً شيعية. والشيعة هي «المعارضة»، هي

بروتستنتية الإسلام، والمتشيعون ينتسبون إلى علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء وصهر النبي، بويع بالخلافة سنة 659م وقتل سنة 661م. يرفضون سلطان الخلفاء الذين خلفوه منذ ذلك الحين والذين بأكثريتهم يستندون إلى السُّنَّة، الأرثوذكسية السنيّة. وبما أنه لم يعد هناك من خلفاء فقد أصبح الأمر مأسويًا.

جاء أجداد أمير دوشي وأمير الحمداني من الجزيرة العربية أو من اليمن مع المقاتلين العرب قبل أن يختلطوا بالعشائر الآرامية التي لا تزال هناك منذ العصور السومرية. لا شك أنه لهذه الأسباب جهد أمير الحمداني لفك رموز الكتابة المسمارية، لأنه من الممكن، بفضل ذلك، معرفة الأسباب التي جعلت الأدب يولد هنا، في فجر التاريخ. لكنه دفع غالياً ثمن هذا الطموح، لأن لكل أدب طاغيته. لقد اقتص صدام من جرأته بقسوة وأكرهه على التوقف سبع سنوات عن متابعة دروسه الواعدة. لقد أرسل أمير الحمداني، الطائر الطالع من المستنقعات، الحر كالهواء، الوسيم كآلهة سومر القدماء، الفتى الطيب الصالح، أرسله (صدام) يشن الحرب على الإيرانيين، وهي عادة قديمة تعود إلى العهد السومري: والحقيقة هي أن الحرب هي دائماً قضية تجار الأسلحة. وهكذا، خلال سبع سنوات، ذلك الليل الطويل، أُكرِه أمير الحمداني على نشر الموت: الأهواز، ديزفول، خُرَّمشهر، شط العرب، أرفندرود، قصر شيرين، غيلان الغرب، جميع هذه الأسماء سالت دماءً

ودموعاً من ملايين الشهداء حصدهم الموت في شرخ الشباب على مذابح الإمام الخميني وصدام حسين. ولكن من يتذكر هذه المحرقة التي غدت قديمة؟ لقد انتهت منذ خمسة عشر عاماً. هذا الرعب الذي دعاه الجغراسيون الحرب العراقية ـ الإيرانية لم يكن يأتي دائماً في الصفحة الأولى من الأخبار المتلفزة. قضى أمير الحمداني نصف مرحلة الحرب أسيراً في المعتقلات الإيرانية. ولما كان شيعي المذهب لاقى الكثير من الاهتمام هناك، لأن هذه الحرب كما يقول الأئمة هي أيضاً بين الخير والشر. كانوا أول من تكلم عن «صدام يزيد»، عن «صدام الشيطان». وعلى الذين يحملون شعاراته أن يبرهنوا أنهم ليسوا من أنصاره. فكم من مرة ظن أمير الحمداني أنه يفقد عقله، وأن ما أنقذه، ربما، كانت أناشيد بلاده، أرض سومر، موطن الأدب. هناك ولدت القصائد الملحمية الأولى: أسطورة غلغامش، انحدار إنانا إلى الجحيم، حب إنليل، وكثير غيرها. وقضية الجحيم والجنة بالتأكيد...

ويتيه نظر أمير الحمداني في المنظر المحموم وسط الغبار والريح. هناك حيث لا تستطيع الرقيبة أن ترى سوى الكتلة المذهلة لزقورة نانّا، هناك يكتشف العراقي وجود الحاجز المزدوج الذي تحميه أبراج طوّق بها الزقورة والمدينة المترامية الأطراف، في الألف الثالث، الملك أمرسين حفيد أور ـ نامو. وقرب المكان الذي كان يسكنه أعيان المدينة اكتشف السير ليونارد وولي أثناء الحملة التي قام بها بين 1926 ـ 1927 الحي

الذي يفترض أن يكون إبراهيم قد عاش فيه قبل ألفي عام من عصرنا. كان حيّاً مؤلّفاً من مساكن فخمة، ذات جدران من آجر مغطاة بجص جميل الشكل. تتجه الأبواب والنوافذ نحو فناء الدار المحاطة بسقيفة من خشب. كانت البيوت تطل على أزقة ضيقة ولم تكن تختلف كثيراً عن منازل العراق اليوم. وعلى الجهة الجنوبية الشرقية تقع المقبرة التاريخية (2600 ـ 2400) ذات المدافن المعقودة التي تعلوها قباب بنيت بالحجارة. واكتشف السير ليونارد، خلال شتاء 1927 ـ 1928، قبور الملوك الثلاثة: آسكلامدوغ، مسكلامدوغ، الملكة پو ـ آبي وزوجها أبرجي.

وكان العثور على خنجر وخوذة مسكلامدوغ المصنوعين من مزيج طبيعي من الذهب والفضة في قبر هذا الأمير الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث، ومئات العقود والحلى، مترافقاً مع العثور على كنز مشابه لتوت عنخ آمون قبل عدة سنوات في مصر. ووجد في قبر أبرجي، وهو شخصية من الدرجة الثانية، على كميات من الأواني الذهب والتحف المصنوعة من هذا المعدن الثمين. ولكن ما دفع إلى هذا البحث الخارق هو اكتشاف الملكة پو ـ آبي التي وجدها وولي معتمرة تاجاً مصنوعاً من لازورد وعقيق أحمر وأوراق من ذهب ومغطى بالحلى ومثقّل بالهدايا العجيبة.

أسدى هذا المَنّ المنبعث من الماضي السحيق إلى عراق

ناشىء حينها ـ الأمة التي كانت، تحت الوصاية البريطانية ـ في طور البناء ـ أسدى إليه أكثر من مرجع، جذوراً حقيقية. . تحولت خوذة مسكلامدوغ التي عرضت في متحف بغداد، بعد قليل من الزمن، رمزاً للهوية العامة لشعوب بلاد الرافدين المجتمعين في قلب العراق. تجمعوا وتآلفوا في ظل السلطنة العثمانية كما في ظل الخلافة العباسية، وهم كانوا يتعارفون ويتقايضون السلع منذ أيام تل عبيد. وتشهد قبور أور ببلاغة على عظمة المدن ـ الدول الأولى لهذا الإرث العام.

وهي تؤكد أيضاً على قوة الأفكار التعبيرية قبل ولادة الفلسفة بزمن طويل. ومن الروائع التي عثر عليها في أور لوحة علم، موجودة في المتحف البريطاني. صفحتا هذه اللوحة التي على شكل مِقرأة مرسومتان ومطعّمتان بالأصداف واللازورد وبصلصال وردي، وتمثلان على التوالي الحرب والسلم. إنها، استناداً إلى أندره پارو، أول «رسم متحرك».

يرى على وجهها مسيرة حرب على ثلاثة سجلات: تبدأ القصة بسهرة سلاح، ثم ينطلق الجيش، إنها المسيرة، وأخيراً الهجوم الضاري الشرس. إنها أقدم معركة بالمركبات يصل تمثيلها إلينا. يلي ذلك المشاة، ويجمع الجنود ذور الخوذات المسمرة الأسرى الساقطين على الأرض، ويظفر جنود أور بأعداءٍ لا تمثلهم اللوحة: ليس للمهزوم تاريخ. . . ويعالج السلم، مثل الحرب،

بثلاثة سجلات أفقية. تظهر الطبقات الدنيا موكب المهزومين يتقدم لدفع الجزية وتقديم الاحترام لملك أور. يحتفل الأمير بانتصاره بإقامة مأدبة فخمة، بحضور أعيان البلاد. يبدأون بشرب الخمور تهدهدهم أصوات مطربة يصحبها عزف قيثارة. يمجد النشيد الذي يغنونه، الحرب والسلام اللذين تمثل دورتهما على العلَم.

وكان على قبر پو - آبي أيضاً قيثارة هي اليوم في متحف فيلادلفيا المنظِّم مع المتحف البريطاني عمليات التنقيب التي يجريها وولي. زخرفته تضفي شهرة على ثقافة الأناشيد في بلاد الرافدين. نجد هناك صورة البطل غلغامش، وهو شخص أسطوري تبرزه جميع روايات أسطورته التي ولدت أقدم أساطيرها في بلاد سومر، مثل ملك مدينة أورروك الواقعة على مسافة مئة كيلومتر من مدينة أور حيث كان يحلو للملك شولغي أن يقدم له الاحترام. ويبرز غلغامش، ملك أورروك في مطلع ملحمته التي أنشدت حتماً قبل ولادة الكتابة المسمارية، استناداً إلى الألواح المكتوبة «طاغية دمويا»:

ضمن أسوار أورروك، هو لا يكف عن التجوال
يتظاهر بأنه أقوى، مثل جاموس، شامخ الرأس
لا مثيل لقرقعة سلاحه.
يُصغي إليه رفاقه وقوفاً
لا يُبقي غلغامش على ابنٍ لأبيه؛

ثائر عنيف ليل نهار.

غلغامش (...)؛

إنه مع ذلك راعي أوروك ضمن الأسوار

لا يُبقي غلغامش على ابنة لأمه[1]

يتوسل شعب أوروك، في حالات اليأس، آلهته ليأتوا لمساعدته. تثير الإلاهة أرورو حينذاك منافساً لغلغامش. إنه إنكيدو الفظ وهو نصف إنسان ونصف حيوان ويتمتع بقوة جبارة. يتواجه البطلان. ونتيجة للمعركة يتولد الاعتبار المتبادل. يصبح البطلان في النهاية صديقين فيغادران أوروك ويقصدان غابة الأرز ليتحديا العملاق غومبابا.

ويستطيع الزوار أن يشاهدوا، على قيثارة متحف فيلادلفيا، غلغامش مطوقاً ثورين بذراعيه وإلى جانبه كلب يتمنطق بسكين مطبخ يقدم المأدبة، يتبعه أسد يقوم بوظيفة الساقي. تتألف جوقة المطربين من حمار يحمل قيثار وابن آوى يعزف على مزهر ويقرع طبلاً، ومن دبٌ يحدِّد النغَم، وتعزف الجوقة أمام رجل عقرب يقرع كأسه بكأس غزال. يشكل الفن، في سومر، جزءاً من الملحمة؛ ومن الغناء ينبثق ما نسميه اليوم أدباً.

(1) ملحمة غلغامش، اللوحة الأولى (نسخة نينوى)، ريمون ـ جاك تورناي وهارون شافر (ناشر). باريس. طبعة سيرف، 1999.

تلك هي الترانيم التي تصحب الملكة پو ـ آبو في سفرها إلى العالم الآخر. ويكتشف وولي، مرتعباً، حول قبرها وقبر زوجها أبرجي، مشهداً مخيفاً، مشهد مجزرة تمثل الخلود. شاهد جثث ستة جنود مذبوحين في مراكز الحراسة، وفي الوقت نفسه، ذبح الثيران وسائقو العربات كالذين رسموا على العلَم. وأعدم خمسون من رجال الحاشية أيام الجنازة الملكية الرهيبة. ويبدو أن الريح التي تعصف في سهل أور لا تزال تحمل صدى أنينهم ساعة موتهم. مَنْ أعدم هؤلاء الناس ولماذا؟ يتحدث أندره پارو عن «طقوس خصوبة» ووولي عن «بربرية». إن الناس القادرين على ابتكار العلم يعرفون أيضاً أن يحققوا مشاهد رهيبة. لا شك أن الأمير الذي أمر بتنفيذ هذا المشهد كان يريد أن يثبِت سلطته المطلقة وهي تقضي بقتل رعاياه بالجملة على مرأى ومسمع من الجميع وبمباركة السحرة والكهان، لأن الجريمة اقترفت بمناسبة رتبة جنائزية. ولأن غلغامش لا يحترم هذا القانون ثار وعارض خصمه. ويشرح أمير دوشي قائلاً: إن التوازن الذي حدث بسبب دخول إنكيدو على المسرح أتاح بداية الأسطورة.

وها هو غافر البلدي، حارس المكان، يصل أخيراً. استسلم لقيلولته فنسينا، فاستيقظ مذعوراً وجاء يقدم أعذاره مضطرباً. وبإشارة منه دلنا على بيت علماء الآثار. عند هذا الرجل أشياء يقولها ولكن ليس بصراخ يصم الآذان. كان وولي

قد جهز هذا البيت سنة 1922 دون أن يغيِّر تصميمه. إنه مستطيل الشكل، تفتح أبوابه ونوافذه على فناء مكشوف، ولا يختلف أبداً عن المنازل التي اكتشفها أخيراً، قرب مساكن الأعيان.

وكان وولي قد وصل لتوّه إلى أور برفقة وكيل أعماله المخلص خوجا حمودي والعالِم بالنقوش سيدني سميث وأ.و. لورنس وهو الأخ الصغير لـ ت.إ. لورنس. تعرّف وولي إلى خوجا حمودي وإلى من دعي فيما بعد لورنس العرب سنة 1911 في كركميش، على الشاطىء الغربي للفرات، على بعد نحو ألف كيلومتر شمال أور. وهناك نقبوا خرائب هذه المدينة ـ الدولة القديمة التي كانت في حدود سنة 3000 ق.م. تقايض الخشب بمنتجات خزّافي أوروك. وفيما كان لورنس يتدرب على علم الآثار بإشراف وولي، كان حمودي يشرف على العمل. وفي سنة 1913 سافر الثلاثة إلى إنكلترا بصحبة داهوم وهو مصور فتى أخذه لورنس على عاتقه. وفي السنة التالية، عشية الحرب، اجتاز وولي ولورانس جنوب صحراء سيناء عند الحدود العثمانية في إطار مهمة يمولها صندوق استكشاف فلسطين، وهي غطاء ملائم يستخدم للتجسس على المواقع التركية لحساب مكتب الحرب، بواسطة مكتب الاستعلامات في القاهرة.

ويصبح بيت علماء الآثار الذي افتتحه وولي في أور، بالرغم من وسائل الراحة البدائية، مكاناً رفيعاً للحياة السياسية

والثقافية للانتداب البريطاني الذي استقر في العراق منذ توقيع إتفاقية سيفر سنة 1920. وكانت جرترود بل من أوائل الزائرين، تعرف إليها وولي في كركميش ثم التقاها ثانية أثناء الحرب فيما كان يعمل مع لورنس لحساب المكتب في القاهرة. جرترود بل، عالمة الآثار، راسمة الخرائط، العميلة السرية، كانت سيدة عريقة، أنيقة تبتاع ملابسها من محلات وورث ومولينو في باريس وتوصي على أثاث منزلها وأسرَّتها عند محلات هارولدز وينقل في شاحنات تجتاز المانش وأوروبا وتركيا ويُسلَّم لها في بغداد. كانت تشرف على بقاء المتحف الوطني العراقي وتجهيزه بطلب من الملك فيصل، ملك العراق، الذي عيّنها مديرة فخرية لمصلحة الآثار والعاديّات سنة 1922.

وفي السنة التالية تدخل على المسرح شخصية أخرى، لم تكن كاترين كيلنغ عالمة آثار، بل امرأة مثقفة ذات جمال خارق. فأسكنها وولي، وقد افتتن بها، في القاعة الكبرى التي تفصله عن قاعة العاديّات، حيث كان يزورها كل يوم ليطلع على أحدث اكتشافاتها. والعشرة الحميمة تدفع إلى الثرثرة، ولم يلبث وولي أن تلقى رسالة تحذير من جانب مدير متحف بنسلفانيا الذي لم يجد من المناسب وجود شخص في أور غريب عن البعثة التي ترعاها مؤسسته بالاشتراك مع المتحف البريطاني، ومن المعلوم أن البروتستانت الأميركيين يتعهدون طوعاً توجُّهاً طهريًا ما. على

أنه يجب التسليم بأن شخصية مدام كيلنغ بإمكانها، في عصر لا يزال فكتوريًا، أن تمثّل الوجه الأقل شيطانية.

وُلِدت كاترين سنة 1888 من أب ألماني مهاجر إلى إنكلترا، تابعت دروساً في التاريخ المعاصر، في جامعة أوكسفورد، قبل أن تلتقي، أثناء الحرب، المقدم ب.ڤ كيلنغ الذي تزوجته بعد انتهاء الأعمال العدائية في 3 آذار/ مارس 1919 في لندن. عند ذاك يترك الزوجان إنكلترا إلى بغداد ثم إلى مصر حيث عمل كيلنغ أثناء الحرب، مثل لورنس وولي في خدمة مكتب القاهرة، وعين فجأة مديراً عامًا لمسح مصر وهيئة أبحاث القطن. وانتهى شهر العسل هذا نهاية مأساوية عندما أطلق العميل السِّري القديم رصاصة في رأسه، في 20 أيلول/ سبتمبر سنة 1920 عند سفح هرم الجيزة الكبير، كما روّجت الإشاعات. هل التجسس كان سبب ذلك أم الحزن الذي سبَّبته له روح كاترين السوداوية؟ لن نعرف ذلك أبداً. وولي هو أيضاً أكثر صمتاً هنا، أكثر من قبور أور التي كلف مهمة استنطاقها.

وجاء بعد كاترين كيلنغ سنة 1924 ليون لوغرال، وهو يسوعي أميركي مولع بالنقوش السومرية. ويلتحق بالفريق، سنة 1925 عالم مبتدىء يصبح فيما بعد الوريث الكُفُؤ للسير ليونارد على رأس علم الآثار البريطاني في بلاد ما بين النهرين. ولد ماكس إدغار لوسيان مالوان في السادس من أيار/ مايو سنة

1904 في باترسا پارك في لندن، وهو وريث عائلة يمكن أن توصف بأنها «أوروبية» قبل الحالة الأخيرة. ولد أبوه فريدريك مالوان في ڤيينّا وخدم في صفوف جيش الإمبراطور فرانسوا جوزيف في البلقان، قبل أن يتزوج مرغريت دوڤيڤييه، وهي فرنسية كانت أمها مغنية أنشدت أوپريت هيرودياد أمام مؤلفها جول ماسينيه والبلاط البلجيكي وكان إنشادها رائعاً. ولم يكن ابنهما ماكس أقل تشبُّثاً بجنسيته البريطانية، فبعد أن كان طالباً داخلياً في مدرسة الرماية الرسمية في السوسيكس، تابع دروساً عليا ناجحة في نيوكولدج في أوكسفورد. وعند وصوله إلى أور كان يجهل كل شيء عن علم الآثار كما عن الحياة. وكانت تلك بداية عمل عظيم.

إن كوكبة كهذه من أصحاب المزايا والمواهب تتطلب حتماً مؤرِّخاً عبقريًّا. فدعا وولي الروائية أغاثا كريستي فجاءت إلى أور سنة 1928، ثم في سنة 1929 حيث تعرفت بماكس مالوان، فتزوجت به سنة 1930[1].

كل ذلك جرى في بيت علماء الآثار حيث أدخلنا غفير البلدي. وهنا يمضي لياليه منذ أكثر من عشرين عاماً. ويمنعه

(1) هنريتا ماك كول، «حياة ماكس مالوان، علم آثار وأغاثا كريستي»، لندن، منشورات المتحف البريطاني سنة 2001.

النظام العسكري الأميركي المهيمن، منذ نهاية آذار/ مارس 2003، على المركز الأثري القائم داخل القاعدة، يمنعه من الخروج قبل الصباح الباكر. وهكذا فهو لا يستطيع أن يمنع اللصوص من استغلال الظلمة لنقب أرض المدينة القديمة التي لا تزال غنية بآلاف الأشياء: أختام أسطوانية، خزف، مسلات، منحوتات... الخ، وهو فوق ذلك لا يستطيع أن يقول من هم هؤلاء اللصوص. هل هم عراقيون قدموا من خارج القاعدة، أم جنود أميركيون متمركزون داخلها؟ يجب أن يطرح السؤال على هركول پوارو.

تصور مدام كريستي السير ليونارد في روايتها: «جريمة في بلاد ما بين النهرين»[1] التي طبعت في لندن سنة 1935، ذا صفات انفصامية، تحت اسم دكتور لايدنر. يقتل هذا امرأته «المثيرة للمشاكل» التي يبدو أنها تسيء الظن بكاترين كيلنغ. ولكن إذا كانت الجريمة تقع في صميم اللغز فإن سرقة العاديات تجري في الوقت نفسه. ويكتشف پوارو أن ذلك هو عمل شخص يدعى راوول مونيه، «نصّاب تعرفه مكاتب الشرطة الفرنسية حق المعرفة»، مونيه اختصاصي في سرقة موجودات المتاحف والتحف الفنية، مخادع، مشعوذ، يتلبّس بجميع أنواع الهويّات

(1) أغاثا كريستي: «جريمة في بلاد ما بين النهرين» ترجمة حديثة لروبير نوبريه، مكتبة الشانزليزيه، مجموعة «القناع» 1992.

لكي يصل إلى الكنوز التي يشتهيها. يدَّعي مونيه في أور أنه الأب لافِنْيِي العالم بالنقوش، وقد جاء ينقل للدكتور لايدنر كلمة السر الخاصة بالكتابات المدونة على الألواح المكتشفة حديثاً. ويدخل مونيه تحت اسم لافينيي، إلى غرفة العاديات المتاح له الدخول إليها عبر الغرف التي يهمه أمرها. وهناك يضع قوالب للتحف الفنية ويعطيها لشريكه في المؤامرة، وهو صائغ تركي يدعى علي يوسف. فيعطيه هذا نسخاً يحلها محل التحف الأصلية التي يقوم ببيعها، فيما بعد، لأنه كما أخبرنا پوارو: «هناك دائماً هواة جمع تحف مستعدون أبداً لدفع ثمن باهظ للعاديات الحقيقية دون طرح أسئلة محرجة».

وهذا القول صحيح إلى درجة أن التحف التي سرقها مونييه في قاعة العاديات والتي تختفي ليلاً في المدينة القديمة لم يوضع له جدول بعد ـ فلا تحمل أي دليل يتيح التعرف إليها ولا تمثل في أي قائمة. ومن السهل، والحالة هذه، تصريف البضاعة؛ المشكلة الوحيدة هي إخراجها من البلاد وإيصالها إلى أميركا وأوروبا. وهنا فشل راوول مونيه وعلي يوسف حيث أوقفا في بيروت فيما كانا على وشك أن يبحرا إلى فرنسا.

في شخصية راوول مونيه الذي خلقته آغاثا كريستي ملامح من أرسين لوبان لا ينكرها موريس لوبلان. وراوول مثل أرسين مشهور بتخطيط أعمال السرقة وبتهريب التحف الفنية. وهذا ما

يجعله متعاطفاً ودوداً إذا لم يكن، في نهاية المطاف، الرأس الباحث عن شبكة من مخبئي المهربات أو جامعيها دون أن يرف لهم جفن من حياء. واليوم يستنتج أمير الحمداني، والأسى يحز في قلبه، أن ليس هناك راوول واحد بل ألوف يعملون عمله، ماذا يفعل الجيش الأميركي إذاً؟ صُدمت الرقيبة هلتون ـ ڤادنر لما يجري ووعدت بأنها ستعلم رئيسها النقيب ستوكل بذلك وهو سيتخذ بنفسه تدابير لتشديد الحراسة على الموقع الأثري في أور. ويبقى أن نعرف ما إذا كان اللصوص الذين يتحدث عنهم غفير البلدي يأتون من الخارج أم من داخل القاعدة التي هو ضمن إطارها. هذه هي المسألة الأولى التي يجب أن يحملها پوارو لدى دخوله بدوره إلى بيت علماء الآثار. وقد صرح في بداية تحقيقاته بقوله: «لنتكلم بصراحة، أنتم جميعاً متهمون في هذا البيت. الطباخ، الخادم، مساعد الطباخ، غاسل الأواني المطبخية... أجل وجميع أعضاء البعثة، بكل تأكيد».

الفصل الثاني

شيخ لاغاش

فيما كانت الرقيبة هلتون ـ ڤادنر تجتاز حدود إمارة الكويت، غداة الخامس عشر من آذار/ مارس سنة 2003، كانت لا تزال تجهل أنها لا تغزو العراق وحدها، هذه الفسيفساء من الشعوب التي كان السير هاري بريدج سان جون فيلبي، المنافس الأكبر للورنس، يدعوها «ثريدة الشعوب»، بل كانت تجتاز أيضاً بلاد ما بين النهرين موطن الكتابة والأدب. فمن وراء البحيرات التي جففها صدام ليطرد منها المتمردين الذين كانوا يتحدونه، من بلاد سومر القديمة بدأت الفرقتان العسكريتان الأميركيتان الكبريان 101 و82 المجوقلتان وفرقة المشاة الثالثة المؤللة والمارينز، من هناك بدأت هجومها. ولما اشتبكت مع جيش صدام في الناصرية فضلت أن يلتف حول المدينة من الجنوب من سهل أور حيث تمر الطريق الدولية ومن الشمال من سهل لاغاش منافسة أور. تمثل الأرتال الطويلة المتجهة نحو الشمال مشهداً يشبه ذاك الذي تعرضه مِسلّة النسور الموجودة اليوم في متحف اللوفر. نحتت

المسلة في القرن السابع عشر على عهد السلالات المدعوة «قديمة» التي كانت تحكم لاغاش، تحيي هذه المسلة انتصار سلاح لاغاش على أومّا، جارتها. وكان هدف هذه الحرب بستان نخيل يدعى «المروي بغزارة» كانت تتنازعه المدينتان. وكانت مسلة النسور، على غرار لوحة العلَم، تعرض وجهاً وقفا مقسومين إلى ثلاثة سجلات.

كان مشاة لاغاش الشاكّو السلاح المدرعون بالبرونز يتقدمون في نظام حربي. يظهر في الصف الأول، إيان ـ نا ـ توم ملك لاغاش في قامة بطولية يتمنطق بيطقان. تسير العربات في المقدمة تجرها حمير ضخمة كالتي اكتشفت عظامها في مقبرة أور. المنتصرون يدفنون موتاهم، ثور مشكول يعد للتضحية، الجرار مملوءة خمراً استعداداً للشراب. وفي الفضاء تحوم النسور فوق جثث المهزومين. إنها نهاية الحرب. وعلى قفا المسلة يقدم الشعب احترامه للملك الظافر. رمز سلطته عقاب لها رأس أسد ورمز قوته كتلة من السلاح يستخدمها للبطش بالأشرار الذين يلقي القبض عليهم بواسطة شبكة الآلهة الكبيرة.

وإذا كان فنانو لاغاش يجيدون إبراز ويلات الحرب بواقعية لا يستطيع غويا إنكارها، فإنهم يستحضرون أيضاً بلاد سومر وأساطيرها المؤسّسة. الجرار مملوءة بأوراق ثمار النخيل وبالمياه المستقاة من القنوات التي تسقيه. والشبكة التي يمسك بها الملك

هي شبكة صيادي دجلة. ثم تأتي الحيوانات القوانص: العقاب، الأسد، النسور، وأخيراً الحيوان الذي يقدم ذبيحة وهو حتماً الثور السماوي للإله آن، الذي قتله إنكيدو وغلغامش بطلا ملاحم مدينة أوروك.

الويل للمهزوم! إن الكتابة التي تصحب اللوحة التي نشاهدها في اللوفر، تقول لنا شيئاً آخر:

«أعطى إياناتوم رجل أوما شبكة إنليل =
العظيمة وجعله يقسم به.
وأقسم رجل أوما لإيانا توم:
«بحياة إنليل ملك السماء والأرض،
أستطيع أن أستغل بالاقتراض حقل نينجرسو (...)
لن أنتهك حرمة أرض نينجرسو أبداً. لن أحول
(مجرى) قنوات الري ولا قنوات الملاحة، لن أهدم
أبنيتها. وإذا فعلت ذلك فلتهبط على أوما شبكة
إنليل ملك السماء والأرض الذي أقسمت بحياته».

وتتكرر المأساة أبداً: لقد جعل صدام، عبقري الشر الذي أهلكه، من السهل الذي تبتلعه الأرمادا الأميركية، صحراء لا نهاية لها ليقتص من القبائل الشيعية التي انتفضت ضده.

ويترجم أمير دوشي ولكن بدون غنائية، فيما نحن نسير في الطريق اللانهائية التي تؤدي إلى لاغاش: «لقد جفف القنوات،

والقرويون المجوّعون فروا؛ وفقد ورثة سومر فردوسهم الأرضي، نكث ملك أومّا بقسمه وسقطت شبكة الآلهة الكبيرة عليه!».

وصلنا إلى قرية شترا الصغيرة؛ وتشق السيارة بصعوبة ممراً لها في متاهة من الشوارع المكتظة بالعجلات والشاحنات القديمة ومختلف العربات. الجموع المحتشدة هناك هي جموع أيام السوق. منصّات البضائع تغص بالثمار والخضار والأفاويه واللحوم. يتصاعد من الدكاكين الصغيرة أصوات متناغمة من ضجيج وصياح، لا تتردد مدام ليذران، الراوية العبقرية لكتاب «جريمة في بلاد ما بين النهرين»، بتسميتها «موسيقى صاخبة»؛ ويشرح لنا أمير دوشي، المولع بمؤلفات الفيلسوف الماركسي لويس ألتوسر (وكانت هذه مغامرة أيام صدام حسين)، أن شترا، المدينة الشيعية والمعقل التاريخي للحزب الشيوعي العراقي، قد اكتسبت، في السبعينات من القرن الماضي لقب «موسكو الصغيرة». وتابع قائلاً إن ذلك يعرف من كثرة الأعلام الحمر المدلاّة من نوافذ المدينة بإجماع رائع. وبما أن العلَم الأحمر هو أيضاً علم الحزب الشيعي يصبح من الصعوبة بمكان التمييز بين العلمين.

لحسن الحظ أن علَم العم سام يخفق في قلب هذه الغابة من الأعلام. وصلنا أخيراً إلى مركز قيادة السرية الخامسة من كتيبة 2/ 25 من مشاة البحرية. مركزها في مفوضية قديمة للشرطة

حيث حدثت، منذ قليل، أشياء انتصبت لها الشعيرات النادرة الباقية في رأس پوارو الخالد. ويسيطر في هذا الجحيم، اليوم، الذي نُصح بعدم تخطي أبوابه، جو طيب في الظاهر. يتحلّق مشاة البحرية، الذين استقبلونا في باحة البناء القديم حول طاولة كبيرة مثقلة بالأواني وعلب المحفوظات ومعلبات وقدور من أجل ترويقة غنية. وراء ستار من ألواح الخشب، عملاق عارٍ تماماً يبربر، لنفاد ماء الاستحمام تحت نظرة ساخرة لأحد زملائه المتباطىء عن مساعدته. وذلك أن الطقس قد أصبح حارّاً ولم تكد تبلغ الساعة السابعة صباحاً. وفي قاعة الشرطة المفتوحة النوافذ، ينام النقيب نيك ڤيسكونتي خالي البال. ومع ذلك لقد أُيقِظَ. وها هو بعد عشر دقائق يأتي قويًا، فتيًا، نظيفاً، ويحيّي الجميعَ مدمدماً ويدعونا لتناول القهوة. فاستفدنا من ذلك للتحدث عما نحن فيه. إن الرجال الثمانمائة في السرية الخامسة يكادون لا يكفون لبعث الأمان في حوار شاترا. بالرغم من أن سكانها، على العموم أحسنوا استقبال الأميركيين لأنهم حرروهم من ميليشيا صدام التي كانت تنشر الرعب. لا تستطيع السرية الخامسة، خارج محاور الطرق، أن تفعل شيئاً ضد أمثال «علي بابا» كما يسمّى هنا اللصوص الذين يبتزون المسافرين والنّهابون الذين انقضوا كرتل من الجراد، على المدن القديمة: لاغاش، جرسو ولارسا الموجودة في هذا القطاع.

وهذا يناقض نيك ڤسكونتي. فالنقيب هو، مدنياً، تاجر في منهاتن. وهو أيضاً مولع بعلم الآثار. لقد اهتم بدرسه في الجامعة. بطريقة أو بأخرى ليظل وفياً لأصوله ـ كان أبوه قبل أن يصبح مواطناً في الولايات المتحدة ـ ابن إيطاليا.

إن نهب بلاد الرافدين يزعج ڤسكونتي كثيراً؛ ومع ذلك، يجب ـ وتلك تعليمات رؤسائه ـ ألاّ يجلب لنفسه عداوة قبائل المنطقة، لأن الجيش الأميركي أبعد من أن يمتلك الوسائل والأجهزة الضرورية لنشر الأمان في المنطقة، فالسير هاري بريدجر سان جون فيلبي وكيل الدائرة السياسية في الهند لم يكن يفعل غير ذلك في عهد الانتداب: أي السيطرة على المدن ومراقبة الطرق وترك الريف يقلع شوكه بيده. هذا هو المبدأ الأساسي لكل سياسة منتدبة.

فمنذ وصول كتيبة 2/ 25 إلى منطقة شترا لم تقم إلا بنصف دزينة عمليات فاشلة. لقد أتاحت العملية الأخيرة، بقيادة نيك ڤسكونتي بصحبة أمير دوشي وأمير الحمداني، استعادة نحو خمسين قطعة من الأثريات. إنها بداية، أما اليوم، إذ إن نصف سيارات السرية الخامسة هي معطلة، فلا يستطيع متأسّفاً أن يقدم لنا مواكبة.

لا ضير في ذلك. سنذهب، مع ذلك، إلى لاغاش. سيحمينا الشيخ سالم جبّار حسين أحمد الذي تسيطر قبيلته على

الموقع. إنه من أنسباء أمير الحمداني. وفيما السيارة تقطع بنا الطريق جاد علينا القيِّم على الآثار بدرس في التاريخ المعاصر. في سنة 1968، وعلى أثر انقلاب قام به حزب البعث الذي تهيمن عليه القبائل والعسكريون السنة، فرض هذا الحزب سيطرته المطلقة، عند ذاك بدأت مقاومة القبائل الشيعية التي تسكن بلاد سومر القديمة. وظلت هذه المقاومة زمناً طويلاً غير شرسة. أضعفتها الحرب ضد إيران الخميني، لأن صدام عندما تسلم السلطة سنة 1979 أحسن التلاعب بالعواطف الوطنية. واتهم الذين تجرأوا على مقاومته في الثمانينات من القرن الماضي، بأنهم خونة وعملاء لإيران الجارة والشيوخ الذين يريدون أن يفرضوا على العراق حكماً إسلاميًّا ثيوقراطياً.

ولم تَثُر المناطق الشيعية إلا بعد حرب الكويت سنة 1991. ظنت القبائل والأحزاب السياسية أن الأميركيين الذين قدموا لتحطيم جيش صدام إنما جاؤوا لتحريرهم. وللأسف، لم يحصل شيء من ذلك. فضل جورج بوش الأب أن يترك صدام يسحق الثورة على أن يجازف في التورط بحرب طويلة المدى. وهكذا وجد صدام يديه طليقتين فازدادت ضغوطه إلى أعلى مستوى.

جنوب العراق، بين دجلة والفرات، هو بلاد أقنية ومستنقعات. فلكي يقهر صدام العصابات التي تنظم صفوفها ارتأى أن يقطع عنها المياه. فجفت القنوات والبحيرات، ما

اضطر الناس إلى اللجوء إلى النجف وكربلاء، المدينتين الشيعيتين المقدستين، في مخيمات التجمع التي أعدها النظام، فظل المقاتلون وحدهم. وحينذاك، في سنة 1993، اتخذت مدن سومر القديمة أهمية، ليست فقط أثرية، بل أيضاً سياسية، للعاديات التي تحتويها قيمة اقتصادية استراتيجية، كم كلاشينكوف باللوحة الواحدة؟ هذا ما يستطيع الجميع - مقاتلون، تجار، علماء آثار - أن يفهموه. قرر صدام الهيمنة على تجارة العاديات التي أوكل إدارتها لابنه عُدي وصهره حاشد. وذلك مصدر عائدات مهم وقضية سياسية بالدرجة الأولى، تعالج باسم الحفاظ على الإرث والأبنية التاريخية. فكلّف عُديّ مبدئياً منع المتمردين، الذين اعتبروا قطّاع طرق، من نهب ذاكرة العراق فكان أبعد من أن يمنعهم، بل أصبح السارق الأول بسيطرته على الشبكات التي تتحكم بالنهب وتنظم عمليات التهريب. وهكذا أصبح وضع الخوة على المواقع الأثرية ينظّم من قِبل النظام إياه. لقد أصبحنا بعيدين جدًّا عن محترف راوول مونيه. فلنراهن على أنه لو كان بوارو، خلال التسعينات من القرن الماضي، تنزه في نيو بوند ستريت أو لو كان زار المعارض المجاورة لمتحف متروبوليتان في نيويورك، فلن يكون على ورثة راوول مونيه سوى أن يفعلوا ذلك، لأن العاديات العراقية تجاور تلك التي منشأها كامبوديا وغندارا.

توقفت سيارتنا في منطقة مكشوفة عند ملتقى طريق ومنبسط

من الأرض يتجه بخط مستقيم نحو الجنوب محاذياً شاطىء النهر، وعلى شمالنا يرتفع تل. هذا المرتفع من الأرض السوداء الممزوجة بالرماد هو اصطناعي مثل أكثر التلال التي تتشكل وحيدة في قلب بلاد سومر بعد تسلق التل، استسلم أمير الحمداني لعادته المفضلة وهي جمع كسر الخزف الأثرية. ثم أرانا بعد قليل، بابتسامة عامرة، قطع خزف مختلفة ذات ألوان وتلك تؤكد على عصورها التاريخية. ظل تل الشبهي، الموقع البابلي مأهولاً من القرن التاسع قبل عصرنا، حتى القرن الثامن من عصرنا، حتى عصر الأمويين، الخلفاء الدمشقيين الذين كانوا حكام الإسلام والعالم العربي. وبعد ذلك انتقل سكانه مسافة فرسخ (4 كلم) ليؤسسوا الدوائية التي تتراءى لنا بيوتها من بعيد. وليس تل الشبهي القائم على شاطىء النهر الذي أعطاه اسمه، أقل قيمة استراتيجية، في بداية الطريق التي تؤدي إلى لاغاش، كما تشهد على ذلك الأثريات التي كان يجمعها أمير الحمداني. عندما بدأت الثورة في بداية التسعينات من القرن الماضي. حوّلت ميليشيا البعث، احتقاراً منها للتراث العراقي الذي كان يفترض أن تحافظ عليه، حولته إلى مخيم محصّن مع خنادق ومراكز رماية في وسط آثار خمسة عشر قرناً من الثقافة والحضارة. وهكذا تحوّل تل الشَّبَهي إلى مسرح لمعارك ضارية كتلك التي وقعت في 19 نيسان/ أبريل سنة 1997 عندما قتل أربعون ميليشيوي وجرح ثلاثون آخرون في كمين نصبه مقاتلو قبيلة

بني سعيد، كما روى لنا أمير روشي. وكان يوماً مجيداً لتلك القبيلة القوية التي تعد اثني عشر ألف عضو وسنين سوداً لتاريخ تل الشّبَهي الذي خُرِّب ودُمِّر.

ويخلص أمير دوشي إلى القول بأسى: «إنه لم يعد سوى مزبلة للتاريخ».

تقدمنا نحو الدوائية، وهي بلدة كثيرة الغبار، ذات بيوت بيضاء اللون، حيث توجد، في ظل رواق جميل من شجر جوز الهند، دار سالم جبار حسين أحمد شيخ قبيلة بني سعيد، فاستقبلنا في قاعة الضيوف. جاء بنو سعيد، استناداً إلى رواية أمير دوشي، من اليمن في القرن الثامن مع المقاتلين العرب الأوائل. ويحب الشيخ أن يذكر، كسائر البدو، المثل القائل: «السفر ظفر». الشيخ مقاتل مستنقعات عتيق، وهو هنا في أرضه منذ ألف وثلاثمائة سنة ولا يجرؤ أحد، منذ تحطيم ميليشيا البعث، أن يدَّعي هذه الملكية. كلف أحد أبناء أخيه مواكبتنا، ليرافقنا حتى موقع لاغاش الذي يخص، كما يقول، أبناء عمومته آل علي خان من قبيلة بني سعيد. استأنفنا الرحيل برفقة حارسنا، المسلح ببندقية هجومية تقليدية سوفياتية من طراز أ.ك47، وسرنا بعد قليل بموازاة نهر شبهي الجاف المجرى بعد أن حول صدام حسين مياهه.

لم يكن المشهد القاحل الذي يمتد أمامنا هو نفسه الذي

اكتشفه الفتى ماكس إدغار لوسيان مالوان والروائية الشهيرة أغاثا كريستي، على أثر تلك النزهة الرائعة التي قررا في نهايتها عقد قرانهما. ولكن إذا كانت أور، منذ أن حدد هويتها، سنة 1850، النقيب هنري راولنسن العالم الكبير كالكثيرين من موظفي الدائرة السياسية الشهيرة في الهند، أرضاً بريطانية لا شك فيها، فإن لاغاش، منذ أن اكتشفها إميل دو سارزيك، نائب القنصل الفرنسي في البصرة، أرض غاليّة (فرنسية). وأتاحت إحدى عشرة حملة جرت بين 1877 و 1900 اكتشاف التماثيل الديوريتية (البركانية المتبلرة) السوداء التي تعود لغوديا أمير وكاهن لاغاش في نهاية الألف الثالث. وهي تشغل اليوم القاعة الكبرى في متحف اللوفر ويمكن الوصول إليها، كما يفرض التسلسل التاريخي، بعد المرور أمام مسلة النسور. وساد اعتقاد آنذاك، بأن الموقع قد نفدت آثاره، لكن حصيلة الحفريات السرية التي جرت ما بين 1923 ـ 1924 من قبل مواطنين أصليين تثبت أن ذلك لم يكن صحيحاً، فاستأنف الفرنسيون بعثاتهم.

وفي سنة 1929 وجد ماكس مالوان وأغاثا كريستي، هنري دو جينوباك يعمل على رأس بعثة من اللوفر، وفي سنة 1933 يترك خليفته أندره پارو لاغاش ليذهب إلى لارسا. ومع اكتشاف أكثر من خمسين ألف نص مسماري استعيد تاريخ لاغاش الذي أتاح لنا أن نفهم فهماً جيّداً كيف كانت تسير عجلة الحياة في

المدن ـ الدول في سومر القديمة. تؤكد هذه النصوص الاقتصادية على سلطة الهياكل التي تتنظّم حولها المقايضات. الهياكل هي التي توجه الاقتصاد والمال في المدينة. رجال الدين السومريون هم الذين يديرون شؤون المدينة، كما كان يفعل، في العصر نفسه، كهنة هيكل بتاح في منفيس أو هيكل آمون في هليوبوليس. رؤساء الكهنة هم الملوك والحكام تبعاً لدرجة استقلاليتهم. دينيّاً، تشهد هذه النصوص أيضاً على سلطة الكهنة في مجتمع، تصدر شرائعه عن روح دينية، وتاريخياً، تتيح تأريخ ظهور المدينة ـ الدولة في بداية الألف الثالث، في حين حدثت في سومر أول ثورة مُدُنيّة في كل العصور وظهرت المدن. تأسست لاغاش، مثل أور، في منتصف الألف الثالث، في العصر الذي يُدعى عصر تل عبيد، وترسّخت كمدينة في حدود سنة 2700 ق.م. (في العصر الذي ظهرت فيه أوروك وأور وظهرت منفيس في مصر) مع بروز السلالات القديمة، ولم تفقد استقلالها إلا نحو سنة 2400 عندما قدم الساميون الرحل من صحارى الغرب وسيطروا عليها وجمع ملكهم سرجون الأول تحت صولجانه بلاد ما بين النهرين وما وراءها من بلدان ساحل المتوسط. تحررت لاغاش بعد قرنين وعرفت عصراً ذهبيّاً آخر في ظل صولجان غوديا وخلفائه من السلالة الثالثة، حتى تهاوى سلطانها عند منعطف الألف الثاني عندما بزغ نجم بابل.

ليست لاغاش مملكة قوية مثل أور وأوروك، لكن أنوارها اخترقت الزمن. تحتوي نصوصها المقدسة على أساطير الخلق الشائعة بين جميع السومريين. وهي تصف تنظيم مجمع الآلهة (الپانتيون) السومريين الذي يوجهه الثالوث الأول المشكل من آن، السيد المطلق الذي هو السماء، ومن إنليل المشترع وهو سيد الهواء ومن إنكي سيد العالم السفلي. ويدور حول هذه الدائرة الأولى الثالوث الثاني وهو زوان، القمر وأورود الشمس وإنانّا نجمة الصباح، ثم تأتي آلهة أخرى، تشكل مجلس الآلهة. ومن الغباء أن ننسى بين هذا القسم الأخير، نرغال، سيد عالم الأموات وزوجته إرين ـ كيغال أخت إنانّا، ونينوردا سيد النحاس وكذلك نينغرسو إلاهة النبات.

وتروي مقالاتٌ أدبية وترانيمُ أعمالهم العظيمةَ وحبّهم وخلافاتهم. مجلس الآلهة هذا هو النموذج الذي صيغ على منواله مجلس الناس الفانين، الذي يتحكم بمصير المدينة ـ الدولة ويعين سلالة حكامها. بالنسبة إلى غوديا، يُفَضَّل التحدث عن «نائب» وليس عن ملك، فإذا كانت سلطاته عظيمة فهي ليست مطلقة. مثل الإله آن، العاهل يملك، ولكن إنليل هو الذي يدير الأمور السياسية بموافقة المجلس حيث يقيم الرجال الأحرار. إن الصلوات والوثائق الطبية ومعالجة السحر والتنجيم والحساب المدونة على ألواح هي التي تؤسس لثقافة الدولة في عصر سومر.

لم يبق اليوم من لاغاش سوى تل عظيم ينتصب عند طرف قرية الرباغ حيث عادت، صيف 2003 عائلات عشيرة علي خان بني سعيد التي أرغمها تجفيف النهر على الرحيل. استقبل أمير الحمداني من قبل حزب المحاربين الذي يهيمن على الموقع. وبصحبتهم زرنا ما تبقى من «بيت الخمسين»، هذا الأولمب حيث يشكل الآلهة الخمسون مجلس سومر، ولاغاش، مثل شبَهي، في حالة يرثى لها. لقد تواجه هناك ميليشيات البعث وبنو سعيد عدة مرات. دُمِّرت في القرية بيوت كثيرة والموقع يُنهب الآن بطريقة منظمة، تبدو لاغاش، من حجرة (قاعة استقبال) الشيخ شاهر حاج راشد الرباغ، وهو جدٌّ محاط بأبنائه وأحفاده، كما بعد معركة بالحراب، مثقوبة بثقوب مفتوحة على عجل من قبل من يسميهم مضيفنا بحياء أحفاد «علي بابا».

لو كان پوارو معنا لما تأخر في طرح السؤال الفخ: هل يأتي اللصوص من الداخل أم من الخارج؟ ويجيب الشيخ الوقور بأنه لا يعرفهم لأنهم لا يأتون إلا في الليل ولا يستطيع سوى سماعهم من حجرته عندما يقلّبون التراب الذي يغطي بيت الخمسين، وقد يتساءل پوارو أيضاً لماذا لا يعمد الشيخ، الذي يقدم لنا القهوة، المحاط بأبنائه وبني إخوته المدججين بالسلاح، إلى إطلاق النار على أحفاد علي بابا، ولكن الشيخ يتذكر قيمة «ثمن الدم» ـ التعويض الذي يجب أن يدفعه لعائلة القتيل إذا أراد

أن يتحاشى انتقامات لا تنتهي. يحدد الثمن حالياً بثمانية ملايين دينار أي بخمسة آلاف دولار. أما ثمن الجرح فيقدر بمليون ونصف مليون دينار أي بنحو ألف دولار. لا أحد في لاغاش حتى ولا الشيخ يملك هذه المبالغ، ومنذ ثلاثة أشهر لم يقبض الحراس أجورهم. عندما جفف صدام حسين نهر شبَهي، دمَّر الزراعة وجوَّع وهدَّم المجتمع القبلي. يبدو إطلاق النار على الناس في هذه الظروف عبياً، وفي قمة الخطورة، كما يقول أمير دوشي. فلا أحد يريد حرباً أخرى من أجل لاغاش وألواحها ومساميرها ولا حتى من أجل الأجزاء المفقودة من مسلة النسور. فلا شك أنه لهذا السبب يفضل شيخ الرُّباغ أن يتجاهل من أين يأتي اللصوص. فلن يقول أكثر من ذلك.

الفصل الثالث

مِشخ جيرسو

عدنا أدراجنا مستأنفين رحلتنا إلى الدوائية لنتجه نحو جيرسو، المدينة المقدسة لمملكة لاغاش. حدد أمير دوشي موقعنا، في حين كنا نغادر البلد، المقفر في مثل تلك الساعة بسبب الحرارة. إن نهب المواقع الأثرية في ما بين النهرين، في نظره، ليس شيئاً جديداً. يمكن القول، بطريقة ما، إن الأوروبيين هم الذين باشروا النهب، منذ منتصف القرن التاسع عشر، عندما تحول الدبلوماسيون الإنكليز والفرنسيون بسبب المنافسة، إلى علماء آثار لكي يفعموا اللوفر والمتحف البريطاني بكل ما يجدونه مهمًّا وثميناً. وهذا هو وقتُ ما يدعوه أندريه بارو، بكل ارتياح، «علم الآثار العسكري». جميع وسائل النهب متاحة. عندما اكتشف الفرنسي فكتور پلاس سنة 1855 منحوتة «اللبوة الجريح» في مكتبة آشور نزيربال الثاني في نينوى. كلّف أصدقاؤه الإنكليزُ الكلدانيَّ المسيحيَّ هرمزدَ رسّام لاختلاسها؛ وهي، منذ ذلك التاريخ، يمكن مشاهدتها في المتحف البريطاني وليس في اللوفر.

لا يسع تصرف كهذا إلا أن يوحي بأفكار لراوول أندريه وأضرابه. لم تخلُ البلد في ذلك العصر السحيق من تجار آتين من أوروبا يستأجرون عمالاً يعملون في المواقع الأثرية من هواة جمع العاديات متعطشين لكل جديد يضمونه إلى مجموعات الطرائف لديهم. غير أن النهب لم يكن كثيفاً ولا دائماً. أتاح تشكيل وتطوير مصلحة العاديات في العراق، التي تضم نحو ثمانية وعشرين ألف موظف في نهاية الثمانينات، مراقبة دقيقة للمواقع الأثرية، إضافة إلى ردع عنيف أحياناً يجعل النهب عملاً استثنائياً. ولم يكن ينقص استئناف النهب سوى الحرب الأهلية التي انطلقت في الجنوب بعد هزيمة صدام حسين سنة 1991 عندما أصبحت التلال أهدافاً عسكرية واقتصادية. قدّر عالم الآثار الأمريكي ماك غير جبسون، في بداية سنة 2003، بثلاثة آلاف أثر فني هام اختفت في العراق على مدى عشرة أعوام، وهو تقدير ذكي. ويذكّر أمير الحمداني، الذي يوافق على هذا التحليل، بأن أناساً مثل عُدي كانوا ينظمون عمليات التهريب ويتعاملون مع تجار أميركيين وأوروبيين ويابانيين، كما نجد أن ذلك يحدث في بلاد أخرى تعاني من الحرب أو من صعوبات أخرى، مثل كامبوديا وأفغانستان، نهب تراثها. ولكن لم يبلغ نهب الثروات الأثرية في العراق، قبل شهر نيسان/ أبريل سنة 2003، هذا المستوى من الاتساع. ويبقى أن نحدد ونفهم كيفية تنظيم هذه

العملية منذ ذلك الحين، من آل علي بابا هؤلاء الذين لا يريد شيخ الرباغ أن يتحدث عنهم؟

لا نزال بموازاة نهر شبَهي، توقفت السيارة أمام منزل كبير تنتصب وراءه في البعيد، مرتفعات جيرسو، هدفنا التالي.

جاء حارس يرافقه صبي صغير لملاقاتنا، ودعانا إلى الدخول. مررنا في قاعة فسيحة مستطيلة الشكل، أرضها مغطاة بالحصر والأرائك وسجادة كبيرة يتحلّق حولها عشرة رجال بالكفّية والجلابية يتوزعون يخنة خروف شهية وأرز جيد الانضاج وسلطة وقطع خبز وفاكهة. كل ذلك يثير الشهية، لكن رب المنزل، الشيخ سيف تامي عبود، بعد أن ألقى علينا التحية طلب إلينا أن ننتظر حتى ينتهي الآخرون. اتخذنا مكاناً في صدر الحجرة حيث علق على الحائط، كما هي العادة، صورة للإمام علي. المفاوضات التي يديرها الشيخ سيف هي في غاية الأهمية. وفَد عليه أقارب يسألونه مساعدتهم في حل نزاع صعب. ينظر العتبيون، وهو حلف قبلي عظيم ينتمي الجميع إليه، إلى الشيخ سيف، حارس منطقة جيرسو، نظرتهم إلى رجل حكيم. الشيخ سيف رجل سبعيني اكتسب خبرة عظيمة ويعرف جيّداً تاريخ وعادات بني قومه. هو حليم، طويل الأناة، يصغي إلى حجج كل من العشائر التي جاء آباؤها يستشيرونه.

أبناء الشيخ محمود يميلون لتأييد البعث وصدام حسين،

ويؤيد أبناء الشيخ عازم الثورة. وكان كلاهما شيعيين والعتبيون أيضاً، لكن عشائرهم كانت متنازعة، بسبب الآبار وأقنية الري. والآن ؟ والآن، لقد زال صدام، وتبدلت الأوضاع. ويمكن الانطلاق بقدم ثابتة. ولكن فجأة تحدث مشاجرة ذات يوم، فيجرح ابن الشيخ محمود بنصل سكينة ابن الشيخ عظيم جرحاً بليغاً فيطالب هذا بتعويض، وتفادياً لسلسلة انتقامات دامية لا تنتهي بين الذريتين تحتم أن يُدفع ثمن الطعنة ومن حسابه الخاص هذه المرة.

بعد أن أكلنا حتى التخمة، انطلقنا لاكتشاف تلال جيرسو يواكبنا أبناء الشيخ سيف. فتقلدوا سلاحهم ليس لمقاومة علي بابا وأضرابه لأن هؤلاء لا يأتون إلى هنا، حسب زعم الرفاق، لكن بسبب المسخ، الذي يرتاد خرائب مدينة جيرسو القديمة. مسخ؟ ماذا يشبه؟ لم يُرَ أبداً ولكنه دائماً هناك، جميع الأولاد يعرفون ذلك. لهذا السبب أصبحت جيرسو من الأمكنة التي لا يرتادها أحد. أيمكن أن يكون المقصود بالمسخ هو شبح نينغرسو، الإله الشفيع، الذي اشتهر غوديا بأن خصص له خمسة عشر هيكلاً في جيرسو بعد أن ظهر له في الحلم؟

ويروي غوديا ذلك في نصّين مسجّلَين على الصلصال:

من عيلام جاء العيلاميون ومن سوسا السوسيون ماغان وميلوخا جمعا خشباً من جبلهما. جاء بهما غوديا إلى مدينته

جيرسو. غوديا، كاهن نينفرسو الأكبر، خط في جبال الأرز طريقاً لم يسلكها أحد من قبل (. .).

كالأفاعي الكبيرة تنحدر شجرات الأرز من جبل الأرز عائمة على مياه النهر، أطواف من الصنوبر تنزل من جبل الصنوبر (. . .). في طرق لم يصعد بها أحد من قبل، رسم غوديا، كاهن نينفرسو الأكبر، طريقاً واستسلمت الصخور كتلا ضخمة (. . .). وكثير من المواد الأخرى حُمِلت إلى الحاكم، باني هيكل نِنّو. من جبل نحاس كيماش (. . .) جُلِب الذهب كالغبار (. . .) من أجل غوديا استخرجت فضة الجبال، جُلبت، بكميات ضخمة، حجارة حمراء لميلوها.

اتخذنا طريقاً رملية حيث تنزلق السيارة ونزلنا عند طرف أرض بور موحشة. انتصبت أمامنا تلال كثيرة تبرز منها كِسَر لا عد لها من الآجر. وفي البعيد، على الأرض القفر تنبسط خيام طويلة لمخيَّم رُحَّل. عتيبيون؟ لا، بدو. جاؤوا، ككل صيف، هرباً من أتون الصحراء العربية. يفعلون ذلك منذ عصور سحيقة. إنهم هنا في موطنهم مثل العتبيين. لا يخافون المسخ. يجب أن ندعهم وشأنهم. عند أقدامنا، في حفرة منخفض من الأرض ترتفع جدران من الآجر لما يدعى، كما شرح لنا أمير الحمداني، قصر أنتيمينا، أمير أول سلالة في لاغاش (2450 ق.م.). اكتشفه الفرنسيون في الستينات من القرن الماضي ولكن علماء الآثار لا يقصدونه البتّة. لا يُرى، في هذا القصر، أي أثر

لحفريات سرّية. هل الفرنسيون حملوا كل شيء أم أن المسخ يؤمن حراسة مشدّدة؟

يتصب وراء مرتفع من الأرض يشرف على القصر، تل أكبر منه، يشبه بركاناً إلى حدٍّ ما، لأن في وسطه فوهة عميقة. وجد الفرنسيون في وسطه قصر إيانا ـ نا ـ توم خليفة إنتيمينا الذي حكم في حدود 2350 ق.م.

لكن التراب يبدو مقلوباً على جوانبه، تشقه خنادق عميقة: ظهرت دهاليز محفورة لا يزال ترابها نديًا. قال أمير الحمداني وهو يلتقط لوحة مسمارية مثلّمة: «لقد جاء علي بابا».

ولكن متى؟ يميل حافظ الآثار إلى تحديد نهاية أيار/ مايو، ولكن عندما يلتقي نظره بنظر أبناء الشيخ، يعدل عن رأيه ويحدد شهر آذار/ مارس، في حين كان العتبيون يتناهشون. كنا سنرتكب خطأ الإصرار على السؤال متى عندما فتح ابن الشيخ نار بندقيته. باتجاه المسخ؟ لا: باتجاه قيّوط ينسل هارباً من الجهة الأخرى من الفوهة. عاد الهدوء إلى القفر. وقرأ أمير الحمداني النص المكتوب على اللوحة:

من أجل نينغرسو، المقاتل الباسل للإله إنليل
بذل غوديا، أمير لاغاش، أقصى جهده.
لقد بنى هيكله نينو، المدعو إنزو بابّار وسبّح إلٰهه.

ومررنا في الغداة ثانية بالشيخ سيف، وعاد بنو عمه لرؤيته

كما تمَّ الاتفاق. تبصروا بالأمر واتفقوا، يستطيع ابن محمود وابن عظيم أن يعيشا بسلام. تحدد ثمن الجرح بـ 750000 دينار. وهكذا عاد السلام إلى بلدة لاغاش.

عدنا إلى الناصرية، وقبل أن يتركنا أمير الحمداني أراد أن يدعونا لزيارة المتحف الذي كان فيما سبق يحمل مفاتيحه. كان البناء محاطاً بشريط شائك ويحرسه الجنود الأميركيون، وبعد نقاش طويل نجح أمير الحمداني وأمير دوشي في إدخالنا. ففي شهر آذار/ مارس سنة 2003 فيما كانت المعارك مستمرة، قام مجهولون بنهب المتحف بالرغم من توسلات المحافظة التي راحت تحاول ثنيهم عن ذلك. من كان هؤلاء الناس؟ فضابط البحرية الآمر المسؤول عن المحلة لا يعرف عن ذلك شيئاً. وعلى أي حال، فالأوامر المعطاة له هي ألاَّ يجيب على أي سؤال. إلا أننا أزعجناه. فاستقبلنا ببنطال قصير (بالشورت) عاري النصف الأعلى من جسمه فيما سائر جنوده يستسلمون للقيلولة. يبدو أن متحف الناصرية قد تحول إلى قاعة رياضة حيث يتسكع رياضيون، موردو الخدود حليقو الرؤوس، بين أكداس من الكتب المغطاة بالغبار وواجهات تجفف أمامها الثياب. وكان على أمير الحمداني أن يفاوض أيضاً ليستطيع الدخول إلى مكتبه القديم الذي جعله الضابط غرفته. فوجد هذا الكتاب الذي كان يريد أن يقدمه لنا. وهو عبارة عن مجموعة من النصوص السومرية،

تتحدث عن طاغية قرر فيما مضى، من أجل فرض سلطانه، أن يجفف البحيرات في جنوبي بلاد ما بين النهرين؛ الترجمة هي بالإنكليزية:

«ترون، هنا، أن التاريخ في بلاد سومر القديمة، لا ينتهي أبداً، يجب أحياناً معرفة ممارسة فن الدبلوماسية، على غرار الشيخ سيف وكما أفعل أنا أيضاً. الآن إلى اللقاء، ليحفظكم الله» ترجمة أمير دوشي.

الفصل الرابع

حارس اوروك

والآن ليس أمير دوشي وأمير الحمداني معنا ليمنعانا من ارتكاب حماقات. لم يعد سائقنا مروان مطمئناً. كانت فكرة ذهابنا إلى أوروك، مملكة غلغامش على بعد مئة وخمسين كلم شمال شرق أور تقلقه. يخشى مروان أن نصادف في الطريق علي بابا فيسلبنا بالقوة ـ ومن يعلم؟ ـ وينتزع السيارة الضخمة الفخمة التي أوكلها إليه سيده، العملاق أبو أيمن؛ الجبار البشوش، ولكنه حازم، لدى مغادرة بغداد. سنأخذ معنا، حفاظاً على سلامتنا، حرساً لدى مرورنا في السماوة.

السماوة مركز تجاري ضخم على شاطىء الفرات، لم يُسِء سكانها استقبال الأميركيين ولم تتعرض للدمار في آذار/مارس ونيسان/إيريل 2003، عندما اجتازتها فرق جورج بوش (الإبن). وجدنا سوقها، التي تتلوى أروقتها الضخمة المقببة على شاطىء النهر، في أوج نشاطها. نحن هنا أبعد ما نكون عن غبار وفوضى شطرة.

هنا، يبدو كل شيء نظيفاً ومنظماً، لا أعلام حمراً، لا صور للإمام علي تباع عند الرسامين العموميين، الذين تفوح من حوانيتهم رائحة الزيت والألوان. يصبح هؤلاء الفنانون في السماوة، مروّجي صناعة تصوير شعبية وشيعية، ذات ألوان فاقعة وشديد التضاد. كما في الموضوعات التراجيدية، يمكن ببضعة دريهمات الحصول على ورق صقيل، على نتاج رائج لأعمالهم. في فن يختلط فيه الواقعي والمدهش، التاريخ والدين، أعمال تمجد ملحمة علي وابنه الإمام حسين الذي يقتل عشية موقعة كربلاء. إنها هزيمة عسكرية ولكنها انتصار معنوي للشيعة المعارضة للخلفاء السنة الذين لا تغتفر عداوتهم.

يوصلنا مروان إلى المجلس البلدي القائم في فيلا حديثة مبنية على الشاطىء الغربي للنهر، وبعض الجنود الأميركيين يحرسون مداخله. الجو في داخله مريح، متظلمون وزُبَنٌ ينتظرون في غرفة الانتظار. اصطُحبنا فوراً ـ وليس من قوانين الضيافة أن ينتظر الغريب ـ إلى مكتب الرئيس، وهو شخص يشبه صدام حسين محاط بجماعة من الأعيان، فعيّن لنا متلطفاً شرطيين مدججين بالسلاح لمرافقتنا إلى أوروك. والشرطيان هما بدويّان من قبيلة آل نِزّا ذات النفوذ القوي في البلاد. استأنف مروان رحلته بخوف أقل، فالخيار رائع. وبعد أن اجتزنا الفرات وجدنا منظراً أصبح فيما بعد مألوفاً، يعرف بالهلال الخصيب، بحيرات من تُرْب وأراضٍ قاحلة وصحارى صغيرة. وكانت السيارة، التي

اتخذ فيها الشرطيان المقعد الخلفي، تجتاز، من بعيد، القرى المنفردة المصنوعة منازلها المتواضعة من آجر وطين مجفف وهي تضيع في منظر رتيب حيث تجري قنوات لا تزال تشتاق إلى الماء. كانت شبكاتها تنتظم قديماً حول محورين كبيرين مفتوحين، في زمن غلغامش، بين دجلة والفرات. وكانت قناة الإيتورونغال تصل بلاد الأدب ببلاد الأمة، فتتجه نحو الجنوب وتمر في لارسا حيث تختلط مياهها بمياه قناة بورّاتم الآتية من نيبور وشوروباك وأوروك قبل أن تجري نحو البحيرة الكبرى حمّر، وشمال بورّاتم القديمة، سور أوروك بتلاله العظيمة مثل أبراج وحصون قلعة من رمال.

وفي أوروك حدث، باتساع ملحوظ، ما بين 4350 و4300 قبل عصرنا ما يسمّيه المؤرخون «الانفجار المُدُني». فقد أتاح تطور الزراعة نشوء مجتمع لم يبق فيه الكثير من الناس المحكومين بعيش الكفاف. لم تكن أسس هذا المجتمع عائلية أو عشائرية بل كانت إقليمية سياسية. ظهرت طبقات سياسية مختلفة وتكونت معها سلالة يرمز إليها مجلس الآلهة (الپانتيون). كانت أوروك، إيريخ التوراتية، مقسومة إلى حيّين: الكُلاّبة حيث هيكل آن سيد السماء، والإيانّا حيث محراب ابنته إنانّا، نجمة الصباح. كانت أوروك مطوقة بسور عالٍ يُنسب بناؤه إلى غلغامش، الذي يمكن أن يكون قد وُجِدَ فعلاً، وكانت مساحتها في ذلك الزمن تبلغ 400 هكتار ويمتد نفوذها على بلاد الرافدين بكاملها عندما قصد

غلغامش وإنكيدو غابة الأرز حيث كان غومبابا بانتظارهما، فلا شك أن المقصود هنا هو غابة أرز لبنان. انتصر البطلان على العملاق، فسقط أرضاً. أراد غلغامش أن يعفو عنه لكن إنكيدو صرعه، فنشأ عن ذلك لعنة.

استقبلنا الحاج ماهر رحيم التوبة، حارس أوروك، وهو بدوي من قبيلة النزّا مثل الشرطيين اللذين يرافقاننا، فاصطحبنا، والبندقية على كتفه، إلى حيّ إيانّا حيث توجد زقورة إنانّا إلاهة أوروك العظمى التي كانت عبادتها مشهورة في العالم القديم. وهناك اكتشفت أولى آثار الكتابة، أصبحت إنانّا عشتار في بابل، عشتروت في فينيقيا، حانور في مصر، أفروديت في قبرص قبل أن تصبح ڤينوس في روما. وكثيراً ما يتكلم عنها هيرودوت في تحقيقه عندما جاء إلى بابل في القرن الخامس ق.م. إنها، في نظر أبي التاريخ، الإلاهة العالمية بامتياز. محاربة، خصبة وموحية لجميع الأساطير. عندما عاد غلغامش إلى أوروك بصحبة إنكيدو كانت هناك على عرشها في حي إيانّا. ونال ملك أوروك، الذي هزم غومبابا، حارس غابة الأرز، رضاها..

عندما اعتمر غلغامش عمامته

رَنَتِ النبيلة عشتار إلى جمال غلغامش

أرادت الإلاهة أن تُغري البطل.

تعال، غلغامش، كن خطيبي

أعطني، آه! أعطني ثمار حبك
أنت، ستكون زوجي، وأنا أكون امرأتك
سأشد لك عربة من لازورد وذهب
أدخل إلى بيتي المطيب بروائح الأرز
لتسجد أمامك الملوك والسلاطين والأمراء
لتضع عنزك ثلاثة توائم
ونعاجك حملانا توائم.

قد يغري البطل بأقل من ذلك، لكن غلغامش الذي وجد العرض مسيئاً رد عليه بلعنة:

ليكن ظل الحائط (. . .) مكانك
ولا يرتدِ جسدك ثياباً

ويتبع ذلك سيلٌ عارم من الشتائم. ويذكُر طاغية أوروك القديم، إنانّا، العاشقة المحاربة، بعشاقها الكثر وبخياناتها. لقد أحبت الشقراق الموشّى (نوع من الطيور) ولكن لتحطّم جناحيه، والأسد لتدفنه، والحصان لتجلده بالسوط وتلجمه، وحاولت أن تغري إسكُلاّمَ بستانيّ أبيها:

تعال، يا إسكلاّم، لتتمتع بحبوتك
مدَّ يدك وداعب فرجي

ويتذكر غلغامش أن من سوء حظ إسكلام أنه عاند ولم يستجب:

أجابك إسكلاّم:

«ماذا تريدين مني؟

أن آكل خبز العار واللعنة

وعندما يأتي الشتاء يكون الأسى غطائي؟».

وصفعته إذ سمعتِ هذا الكلام

وحوّلته إلى فزّاعة.

وإذا أحببتني، تعاملينني مثلهم!

استشاطت إنانّا غضباً. عندما سمعت الإلاهة هذا الكلام صعدت إلى السماء ومثلت أمام الإلـه آن أبيها، سائلة إياه الانتقام. طلبت أن يعطيها الثور السماوي ليقتل غلغامش الذي «عدّد مخازيها». وهددته، إذا رفض، أنها ستتوجه إلى المناطق السفلى لتصعد الأموات «فيفترسوا الأحياء». رضي آن مقابل سبع سنوات من العَلَف لبلاد أوروك. وتمت الصفقة. ولكن عندما هجم الثور السماوي على غلغامش وإنكيدو تمكن هذان من القضاء عليه. وعندما رأت الإلاهة الثور يُقتل شعرت بالمهانة، تلوّت على نفسها وصرخت صرخة حداد. لكن إنكيدو الجبار ينتزع فخذ الثور الميت ويقذفه في وجهها.

«عندئذٍ» تقول أم الملاحم:

جمعت إنانّا عيد الهيكل

وبنات الهوى والمومسات

وعلى فخذ الثور أقمن مناحة[1]

يسجل إنكيدو انتصاراً، لكنه بعد ردح من الزمن يقضي ضحية المناحة. يموت بمرض غريب، بينما يضطر غلغامش، من جديد، إلى مغادرة سور أوروك حيث تحكم إنانّا.

لا نزال نتبع حارس أوروك، نطوف في الأرض المسورة الفسيحة حيث لا تزال آثار خمسة آلاف سنة من الاستيطان حية. ولكن أوروك، بعكس لاغاش وجيرسو، لم يدنسها اللصوص. يقول الحاج ماهر إنه قتل واحداً ببندقيته سنة 1992 ولكن لم يجرؤ أحد منذ ذلك الحين على أن يتحداه، وبعودتنا إلى حجرة الشيخ ماهر أرانا كتاب أوروك الذهبي. فاقترحنا، على غرار جميع الزوار قبلنا، أن ندون فيه أسماءنا. يقول الحاج ماهر إن أوروك هي كنز، هي مكان رفيع، جذب وسيجذب العلماء والسياح باستمرار. إنه لواجب مقدس على آل بِزّا أن يحافظوا عليه لكي يبقى مصاناً لا تنتهك حرمته. وعندما سمعناه يتلفظ بهذه الكلمات بنبرة هادئة واثقة، لم يعد باستطاعتنا أن نشك فيما يقول. ولكن هل يعرف من هم اللصوص الذين يغيرون في كل مكان بعيد من هنا؟

فأجاب حارس أوروك، موجع القلب، «إنهم زقاقيون أوغاد».

(1) ملحمة غلغامش، لوحة VI (نسخة نينوى)، تورناي.

الفصل الخامس

علي بابا

اتجهنا، في سيرنا بموازاة قناة بورّاتم، نحو الشمال ونيبور. كانت القناة المستقيمة الصالحة للملاحة، في زمن إنانّا وغلغامش وسط نظام فسيح للري والنقل يتيح اتصالَ مختلف المدن والقرى بعضها ببعض. فإذا كان غوديا يتصرف بحجارة الجبال ليبني قصوره في لاغاش ويتصرف أورنامو بالخشب ليصنع سقوف مساكن أعيان في أور، فلأن هذه الطرق المائية كانت مستعملة وكان بالإمكان نقل المواد والبضائع بواسطتها. بدون القناة، لا وجود لسومر، وبدون الماء، تموت البلاد. وبعد معاناة طويلة وصلنا إلى أتون صيف 2003 الحار هذا. ففي سنوات جفف صدام كل شيء ولم يعد مجرى بورّاتم سوى أثر جرح دَنِس ومصدر ألم حادّ. فعلى شواطىء هذه القناة أُنشدت إحدى أقدم الأساطير في بلاد سومر، أسطورة إنليل ونِنْليل. لوحات الآجر ترويها.

إنليل هو إله نيبور، وهي مدينة على قدر من الاحترام كتواريخ لاغاش وأوروك. ولكن إذا كان لا يزال، كما نعلم، إله النظام والقوة، الذي يقود الآلهة إلى الحرب، في نظام عسكري، فهو يملك أيضاً «وجهاً خفيّاً»، لأنه في أعماق نفسه الصماء بركان عنف وتوحش. وننليل هي فتاة ذات جمال فتان، تعيش في نيبور، المدينة المتعددة الأسماء. نيبور هي دورَنكي، هي أيضاً دور غيشيما يسمى رصيفها كارغشتينا ومرفأها كاسوسار. پولال هو اسم بئرها الأرتوازية، نونبردو اسم قناتها وإيذْرَلاً اسم نهرها الجميل. ليست هذه الأسماء مجرد ثروات، إنها تحدد مواقف، لم تخترق بعد جميع أسرارها.

أنذرت أم ننليل، يوماً، ابنتها بأنها يجب ألا تسبح في مياه نهر إيدرَلاً النقية ولا في مياه قناة نونبرْ دو، لأنها ستتعرض لنظر نار إنليل، الراعي «ذي العينين الذهبيتين» التي تتحكم بالأقدار. فإذا رآها «يقبلها» ويغتصبها ويفقدها كل كرامة. وتشاء الأسطورة أن تصم ننليل أذنيها عن تحذيرات أمها. فتذهب إلى شاطىء القناة، وعندما تعرّت ظهر إنليل وحاول إغراءها فقاومت، لكن الإله يأخذها بالقوة. ويتركها مليئة بسين، الإله، ـ القمر، ابنه. إنه عمل اغتصاب، يتهمه به مجمع الخمسين، إلهاً ويحكمون عليه بالنفي.

لقد تحققت العدالة. ومع ذلك، فإن هذا كان أبعد من أن

يرضي ننليل فقررت أن تلاحق ذاك الذي اغتصبها، لأنه إله. تغادر نيپور، ولكن عندما تصل إلى أبواب المدينة، يشير عليها حارس الأبواب بالاقتراح التالي: وهو أن تترك الولد الذي تحمله يصعد إلى السماء، وإن ما سيفعلانه معاً يكون حرًّا ببلوغ «العالم الأرضي». توافق ننليل على عرض حارس أبواب المدينة. فيلد في أحشائها ماسْلَمْتيا، إله العالم الأرضي. لكنها كانت تجهل أن حارس أبواب نيپور ليس سوى إنليل حبيبها. وهكذا اتخذت طريق العالم الأرضي «حيث ينتظرها حارس آخر. هو إنليل أيضاً ودائماً» الراعي ذو العينين الذهبيتين، فيضاجعها للمرة الثالثة، ومن هذا الاغتصاب الجديد يولد نينازو، إله العالم الجهنمي. لكن ننليل المقدامة تتابع طريقها، وتصادف هذه المرة المُعَدِّي الذي يساعدها على اجتياز النهر، وعلى الشاطىء الآخر يبدأ العالم الأرضي، ودائماً إنليل، حتماً، من يمنحها ولداً آخر. هذه الأسطورة التي تتكرر باستمرار تمنح نيپور فتنة وسحراً.

وصلنا إلى نهاية قناة بورّاتم، في ضيعة آفاك حيث صحبنا بعض الأولاد إلى بيت عطا وهو حارس كثيف الشعر مسلح بكلاشينكوف، أدخلنا حجرته لنستريح قليلاً قبل أن يرافقنا إلى نيپور، وهي سلسلة من التلال قائمة على معطف قمري على بعد سبعة كيلومترات من منزله. لقد بدأنا نعتاد هذه المرتفعات من الأرض، الضخمة أحياناً التي تبدو، في قساوتها القصوى وسط

سبسب يفتقر إلى النبات، وراء سرادق من شجر جوز الهند. نيبور، مسرح مأساة ننليل وإنليل، بالرغم من الزمن السحيق، لم تفقد من مهابتها ولا من أسرارها. يأخذنا عطا أوّلاً إلى حقل حفريات سرية وننتقل من فجوة إلى منخفض دون أن نرى شيئاً أو حياة. ودائماً نسمع الحديث عمن يُدعَون علي بابا ولكن لا نصادفهم أبداً.

ومن هناك سرنا بضع مئات من الأمتار حتى دخلنا مدرجاً من التلال والآكام التي تحرس زقورة نيبور العجيبة. هذه الزقورة التي تشكل، مع دعائمها وملحقاتها، هيكل إنليل الضخم وتشهد بطريقة أكثر وضوحاً مما هي في أوروك، وبالأحرى، في أور، على إشعاع سومر التي توازي، بالرغم من تواضعها وآجرّها المشوي والمربع الشكل، مصر وحجرها المنحوت. وبالرغم من أن جدرانها قد تآكلها الزمن، فإن المدينة لا تزال موجودة، ولكن إلى كم من الزمن؟. قال لنا عطا، الحارس، إن أباه اشتغل قديماً في ورشتها الأثرية مع الأميركان الذين نقبوا هنا، وهو بيديه نظف الأنفاق التي تخترق الأسوار. وكان يأتي، وهو صغير، ليلعب هنا. إن تعلقه بنيبور راسخ ودائم. وقد أكد لنا أن اللصوص لم يجرؤوا بعد على النيل من زقورة إنليل، ولكن غداً؟ غداً؟ «إذا جاؤوا سأطلق النار عليهم!».

ويصرخ وهو يلوّح بُرشيشه: «علي بابا، إذا تجرأت، تموت!».

وتردد صدى هذا الصراخ كنوع من التحدي، فلم يكن لنا من رغبة سوى تصديقه. ويظل سور الهيكل وزقورة إنليل مصوناً، منيعاً، ربما لأن هذا الإله، الذي ليس كالآخرين، هو أمير القبة الزرقاء.

في البدء، تقول الألواح المحررة باللغة الأكادية التي ترجمت من السومرية هنا بالذات. عند منعطف الألف الثاني، لم يكن يوجد سوى خواء شاسع مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية: أبسو: الماء العذب؛ تيامات: البحر؛ ومُمّو: الضباب. وتعب الآلهة، ذات يوم، من هذا الثالوث العديم المعنى، فأثاروا البطل المحتال إيا إنكي. فتوصل إلى قتل أبسو وسجن مُمّو، لكن تيامات هرب.

السلام قريب. ويلد في بيت إيا إنكي ابنه إنليل، لكن النظام ليس كاملاً، فهو مبني فقط على القوة، تنقصه السلطة. تيامات لا يزال حيًا وعندما يعود، فذلك لكي يهاجم نيبور على رأس جيش من المسوخ، فتجنّ الآلهة ولا تعرف كيف تقاومه، وإذا حوصِرت لا يبقى أمامها سوى الالتفات إلى إنليل بن إيا إنكا ودعوته لتستنجد به.

«أربعاً كانت أعينه وأربعاً كانت آذانه». عندئذٍ يستدعي إنليل الآلهة: إنه ينقذهم من تيامات على شرط أن يصبح ملكاً على مجلس نيبور. فليس أمام الآلهة من خيار، إما إنليل وإما

الفوضى. ويحدث انقلاب: فيسلطونه على جميع الأشياء. وها هو طليق اليدين لينفذ مهمته الإلهية، وسيقرن بعد الآن القوة بالسلطان، إنه الخالق حقًا. فيتحول حينذاك نحو تيامات ويسيطر عليه، ولكنه إذا كان قد أصبح الملك فإنه لا يزال نائب آن، عاهل مجلس الآلهة، لن تكون هذه العلاقة، كما تخبرنا أسطورة نتليل، سهلة أبداً. وإذا كان إنليل قد خلق تقويم الزمن، المبني على أسبوع من سبعة أيام، الذي لا يزال تقويمنا حتى اليوم، وإذا عيّن الآلهة بين السماء وجهنم فإنه لا يزال قادراً على الاغتصاب، تلك التهمة الأساسية الموجهة ضد النظام الذي يحكمنا. ولم يكن أمام الآلهة من خيار سوى أن يبنوا، على اسمه، زقورة نيپور، التي منها يطلق عطا، اليوم، تحدّيه. ولكن لا شيء يتحرك عند الأفق، وتيامات لا يهجم على رأس مسوخه. أين يختبىء إذاً هذا العلي بابا الذي هو في كل مكان ولا يراه أحد؟ وفيما وراء آفاك تختلط الطريق الترابية بقضية قناة إيزنِيِّتُم؛ مياهها سوداء والأرض التي تجتازها ميتة. وفي نهاية الألف الثاني ينتهي حكم ملوك أور العظام. فيؤسس إيشبي إيرا، الموظف القديم لدى إيبي سين، آخر الملوك، سنة 2017 سلالة جديدة يجعل عاصمتها في إيسين، المدينة القديمة حيث يصحبنا عطا الآن، ونلتقي، في الطريق، بقطعان عظيمة من الغنم والمعزى، تسوقها كلاب حراسة مولوسية صلبة الأعناق وراعيات هيفاوات القدود تكشف تنانيرها

المخططة عن سيقان جميلة. إن هؤلاء، لا شك، هن بنات ننليل، التي تجرأت، ذات يوم، أن تستحم عارية تحت أنظار الراعي ذي العينين الذهبيتين. ويستوقفنا عملاق، إنه حارس إيسين، فيرافقنا، وفي القرية يتقلّد سلاحه. وننتقل من أقنية إلى أرض بور، قوافل من جمال تتبعها كلاب غزيرة شعر العنق، ذات شراسة تظهر عند اللزوم، حتى تظهر، في البعيد، المرتفعات المتواضعة ولكنها ضخمة، التي تكوّن إيسين، مدينة آخر الكون، وأمامنا، ابن الحارس الدرّاج الفتى الذي تضرب ركبتاه المنفرجتان الريح، ينطلق في الطليعة. وصلنا إلى الخرائب، ومع ذلك لم نعد نتبيّنه. لم يتوارَ، هو فقط محاط برجال مسلحين بالرفوش والمعاول.

وصرخ عطا وهو يشير بإصبعه: «علي بابا! علي بابا».

صعدنا إلى الهضبة الأثرية فوجدناها مثقوبة بثقوب كبيرة، كما في جيرسو. وفي الداخل آل علي بابا يحفرون، يلفّمون رؤوسهم بكوفيات فلاحين، وعلى أنوفهم نظارات شمسية.

«ما فيش مشكل»، قال الحارس، «بل مجرد قضية تطمين. لسنا من الشرطة. بل زوار راغبون في التعرف إلى علي بابا».

قلما أزعجهم تطفلنا. خرج عطا من السيارة دون أن يتقلّد سلاحه، الحارس وحده يحمل سلاحاً، وهو يأتي من القرية المجاورة والجميع يعرفونه. إنهم جميعاً من عشيرة واحدة وقبيلة

واحدة، إيسين أرضهم منذ لم يكن ينبت فيها شيء، يحفرون ويبيعون ما يعثرون عليه. سألنا إذا كان بالإمكان أن نلتقط بعض الصور. لا مشكلة لدينا، أيها الفتيان، تصرفوا وكأنكم في منازلكم. يتابع آل علي بابا مطمئنين مثل باتيست، تنقيبهم الذي ليس له من السرية سوى الاسم. إنها مهنة لا بأس بها، الحفر مفتوحة استناداً إلى قواعد فنية، أحياناً بخط مستقيم، تستخدم الرفوش والمعاول بحذر، لا ينقص سوى الفرشاة والريشة ويتم التمويه، ولكن أين عالم الآثار؟. وعلى أي حال، يحل محل عالم الآثار رئيس الورشة وهو الحارس الذي يواكبنا.

تتخذ الحفر المهجورة اتساعاً صناعياً في إيسين منذ وصول الأميركيين في نيسان/ إبريل، باستثناء طيران قصير في مروحية في 22 أيار/ مايو 2003 لم يفعل هؤلاء شيئاً لمنع تهديم موقع إيسين. لا يسعون إلى أكثر من ذلك لمنع التهريب الناشيء عن النهب المنظم. إذا كانت الورشة في إيسين فالسوق تفتح في آفاك حيث ينشط العديد من تجار نصف الجملة. فبعد أن يشتروا الأختام الأسطوانية والألواح والتماثيل وغيرها من اللصوص، يعودون فيبيعونها إلى تجار عراقيين وأجانب بأسعار تختلف تبعاً لقيمة الأثر. قد تساوي قيمة اللوحة المسمارية من 100 إلى 500 دولار، تمثال جميل يساوي عشرة أو عشرين ألفاً. تنطلق البضاعة من آفاك في أكثر الحالات بطريق البر إلى الحدود الكويتية

والسعودية أو الأردنية في صيف 2003 هذا دون حراسة. ثم.. ولكن ثم، يجب التحفظ عن القفز إلى الحقيقة، كما يقول بوارو.. صبراً.. لنفهم جيّداً. يبقى علينا أشياء كثيرة لفهمها.

واستأنفنا السفر. وفي السيارة سألت عطا لماذا لم يحمل سلاحه معه، هو الذي زعم أنه سيطلق النار على علي بابا، فأجاب هذه الإجابة التي تجعل بوارو مذهولاً:

«لا أطلق النار على أناس لا أعرفهم».

الفصل السادس

عندما كنتَ ملكاً في بابل

وضع حمورابي، ملك بابل، حدّاً لاستقلال إيسين سنة 1787 ق.م. ولم يكد، بعد، قد بدأ حكماً طويلاً من اثنتين وأربعين سنة، حتى اتخذت بابل مكانها في قلب العالم. أخضع حمورابي، صاحب الشريعة المعروفة باسمه، سومر وأشور وحكم بلاد ما بين النهرين. تحمل الشريعة، الموزعة ما بين 282 مادة، فكرة العدالة كمبدأ تحكيم. وهي تحلّ تتمة لما سنَّه شولغي، ملك السلالة الثالثة في أور، قبل ذلك بأربعة قرون. وهي، في الواقع، تقرّ اقتصاداً لا توجهه الهياكل وحدها، لكنه مشروط أيضاً بلعبة السوق. يتمتع ملك بابل بيراءة الكاهن السومري رئيس طائفة الكهان ويكون أيضاً حاكماً علمانياً، فيزداد بذلك قوة وشرعية. إنه حارس الواجبات والحقوق وحكَم في الأناقة والأذواق، وضامن لسلطة دولة هي وريثة السومريين والأكاديين. فرض هؤلاء الأخيرون سلطتهم في أور وأوروك ونيبور ولاغاش في ظل حكم سرجون في منتصف الألف الثالث قبل أن ترغم السلالات

الثالثة في لاغاش وأور الشعبين على الاتفاق والتفاهم.

وترث بابل أيضاً اللغتين المحليتين: السومرية لغة العلم والأكادية لغة عامة الشعب، المختصرة المجردة من المحسنات اللفظية، ولكن لا يوجد سوى ديانة واحدة حتى لو تغيّرت أسماء الآلهة. إنليل أصبح مردوك وهو لا يستشير الأب إلا شكليّاً. وإنانّا التي أصبحت عشتار ترسخ سلطتها أكثر فأكثر. وامتلكت بابل ستين هيكلاً وآلاف المذابح والمصليات. وأمير مثل مردوك، لم يعد نائباً عادياً للآلهة.

زالت السلالة البابلية الأولى التي أسسها حمورابي، سنة 1595 ق.م. تحت ضربات الغزاة الكاسيين القادمين من جبال زغروس حيث تقع اليوم، الحدود العراقية ـ الإيرانية. وكان ذلك مرحلة استعباد طويل الأمد لم ينتهِ مؤقتاً إلا بسقوط نينوي سنة 612 قبل عصرنا.

طلبنا من سائق سيارتنا أن يمرّ بهذه المدينة قبل أن ندخل إلى بغداد، وكان التقاؤه علي بابا قد أزال عنه الكثير من موانعه. وهو للآن غير مبالٍ ولا يجف حلقه عن كيل المدائح لهذا الأخير ـ علي بابا ـ الذي هو في زعمه، جدير بأن يكون خليفة صدام حسين. علي بابا هو حارس إيسين وعطا حارس نيپور، كما هم الفلاحون المنقبون المؤقتون أو الراعي ذو العينين الذهبيتين. إنه جميع الناس، قد يكون أنت، قد أكون أنا. لا شك أنه يقف

أيضاً أمام باب عشتار الذي يجب أن يعبره ليدخل إلى بابل. ولكن ذاك الباب، هل هو بالفعل هذا؟. لا نعرف ماذا نقول طالما أن ترميمه جاء على يد المولع بالفنون، ڤيوليه ـ لوردوك الذي هو هنا صدام حسين ـ هل هو ذاك الذي اجتازه هيرودوت في حدود السنة 450 ق.م. أثناء رحلة أتاحت له كتابة تاريخه في حين كانت بابل في أيدي الفرس.

وجده محاطاً بخندق عرضه مئة متر مليء بالماء المجلوب بقنوات من نهر الفرات، وبسور طوله 450 غلوة (17 كلم) سمكه 25 متراً وارتفاعه 100 متر. ويمكن اجتياز السور بواسطة مئة باب سري وثماني بوابات كبيرة منها بوابتا عشتار ونينوى. والعاصمة في الداخل يخترقها نهر الفرات في وسطها، منازلها مؤلفة من أربع طبقات، تتقاطع شوارعها بزاوية مستقيمة. وتشرف على العامة زقورة ترتفع درجاتها السبع، التي تتوجها «قبة السرير» 91 متراً.

هناك يحتفل، في رأس السنة الجديدة بأسرار مردوك، كما كان يسمى حينئذاك إنليل، عندما تزوّج كاهنة للإله رمزياً. في الداخل مخدع مردوك، أثاثه فراش وطاولة من ذهب وعرشه. ويزور هيرودوت أيضاً هيكل أفروديت التي ليست هي سوى عشتار/ إنانّا. ويروي (ويقول الاختصاصيون بتاريخ الأشوريين، في القرن التاسع عشر، بأنه لا يروي حقائق) كيف أن سيدات

شريفات في بابل يستسلمن مرة في السنة، على الأقل، للبغاء المقدس.

تجلس النساء في سور أفروديت المقدس، رأسهن مطوق بحبل، إنهن كثيرات العدد دائماً. حتى إذا انسحب بعضهن تحل محلهن أخريات. ممرات محددة بحبال ممدودة تذهب في كل اتجاه تتيح للزائرين أن يسيروا داخلها ويختاروا من يشاؤون. والمرأة التي تجلس في هذا المكان لا تستطيع أن تعود إلى بيتها قبل أن يلقي أحد المارة ببعض المال على ركبتيها ليعاشرها خارج الهيكل. وعليه، وهو يلقي بالمال، أن يتلفظ بهذه الجملة فقط «ابتهل للإلاهة ميليتا [ميليتا هو الاسم الأشوري لأفروديت]».

ومهما كان المبلغ المعروض، لا يحق للمرأة أن ترفض: ليس لها الحق في ذلك، وهذا المال مقدس، تلحق بمن يلقي لها المال أولاً ولا تستطيع أن ترفض أحداً. وعندما يتم ذلك، تتحرر من واجباتها نحو الإلاهة وتعود إلى بيتها، وبعد ذلك لن يعود يغريها المال مهما كان كثيراً. (199.1).

إن بابل التي رآها هيرودوت كانت نصف مدمرة، على أثر عصيانها لأرتحشستا سنة 478 ـ 477، فيحتلها الفرس، لكن المجوس والمنجمين الذين يلتقيهم كانوا كلدانيين من بلاد سومر. وتبقى رواية هيرودوت، مهما كانت عيوبها، أقدم وصف لبابل نمتلكه اليوم. كما يصف ابن هليكارناس ما يراه في مصر.

ونحن مدينون له خاصة بملاحظة قيمة عن الملاحة النهرية بين دجلة والفرات. وعندما أراد العالم الفرنسي پول إميل بوتا، في القرن التاسع عشر، أن يرسل نقوش خورساباد الآشورية إلى متحف اللوفر وجد عليها بعض المعلومات:

عندهم زوارق تنحدر في النهر حتى بابل وهي مستديرة ومصنوعة بكاملها من جلد. تصنع هياكلها في أرمينيا في أعالي أشور، من أغصان الصفصاف، ثم تغطى بجلود متينة في الخارج بمثابة أرضية منزل، لا يصنع لها مؤخرة ولا رأس محدّد. جميعها مستديرة كالدرع؛ ثم يجهز قعرها بالقش وتُسلّم للتيار محملة بالبضائع، وخاصة بالخمر في براميل من خشب النخيل (194.1).

ويفضل ما ترك هيرودوت من وصف لهيكل مردوك في بابل، استطاع وولي، في بداية بعثاته، أن يكوّن فكرة عما يمكن أن تشبهه زقورة أور. وفيما بعد، استوحى المهندسون المعماريون المكلفون ترميم الموقع، رواية «أبي التاريخ».

هذا الترميم، لم يكن دائماً، لسوء الحظ، موفقاً، ويبدو للوهلة الأولى أن قواعد إعادة تركيب الأعمدة التي حُدّدت في أثينا في بداية الثلاثينات من القرن الماضي لم تحترم على الإطلاق. وإمعاناً من مهندسي صدام حسين في رغبتهم في إحياء الماضي لم ينجحوا إلا في قتله، كان الدكتاتور مهووساً بصلاح

الدين كما كان مفتوناً بنبوخذ نصّر. لقد حملته غطرسته إلى أن يأمر بوضع آجرات تحمل اسمه في جدران قاعة العرش الذي ابتناه الملك العظيم في القلعة الجنوبية. ولكن ربما قرأ الطاغية أيضاً كتاب «جاؤوا إلى بغداد» (They came to Bagdad) الذي نشرته آغاثا كريستي ـ مالوان في لندن سنة 1951. وإنه وراء قلعة نبوخذ نصّر ينتصب تمثال الحجر الذي وجد إدوار، البطل «اللوسيفورسي» جالساً تحته عندما ألقى القناع الذي يخفي طبيعته الحقيقية، في حين تَلَت خطيبته فكتوريا التي كان يستعد لخيانتها هذين البيتين:

عندما كنتَ ملكاً في بابل
وكنتُ أنا عبدة مسيحية

وبدأ إدوار الوسيم يشك ساعتئذٍ بوجود ملوك في بابل في العصر المسيحي.

وعندما تلاحقه فكتوريا بإلحاح:

ـ أكان يروق لك أن تكون ملك.

يا إدوار.

وتنهد تنهداً عميقاً.

ـ وكيف؟

ـ لنقل إنك كنتَ ملكاً. وأنت اليوم تجسيد لذاك الملك.

ـ كان الملوك في ذاك العصر يعرفون واجباتهم.

- لذلك كان بإمكانهم أن يحكموا العالم ويكيفوه.

فكرت فكتوريا.

- لا أعرف ! إذا كنتُ أود أن أكون عبدة مسيحية أو غير مسيحية.

تابع إدوار قائلاً:

- ميلتن كان على حق:

«أفضل أن أكون حاكماً في الجحيم على أن أكون عبداً في النعيم».

لطالما أحببت شيطان ميلتن.

واليوم حل الجنود الأميركيون محل الجاسوسات الإنكليزيات الجميلات وطرائدهن. وفي قاعة العرش جنود من الماريتز مأذونون يصغون إلى عقيد دقيق الشاربين، حسن الإلقاء، يتحدث عن دخول الإسكندر الكبير إلى بابل سنة 325 ق.م. لدى عودته من الهند. وبعد أن تأكد العقيد من أن جميع الحاضرين يعرفون تاريخ الفاتح، روى باختصار كيف استقبل ابن مقدونيا، وهو جالس على عرش ملوك بابل القدماء، نواب جميع الأمم، ويقرأ بعض المقاطع من كتاب أناباز لآريان. وكان الإسكندر يخطط، في بابل، لغزو بلاد العرب وأفريقيا وإيبيريا عندما قبضته الحمّى. والجنود يصغون، مفتونين، إلى تاريخ هذا الإمبراطور العظيم وكتائبه حيث يحسبون أنهم ورثتهم. وكان العقيد، الذي يشمخ برأسه فوق أطول العمالقة الصهب الذين



باڤيان. نقش يمثل سنحاريب، ملك آشور، القرن السابع ق.م.



متحف بغداد. زينة سَرْج، عاج وذهب، القرن الثامن ق.م. سُرقت في نيسان/ أبريل 2003. صورة بعد إعادتها.



متحف بغداد. حوروس يحمي آشور، عاج وذهب، القرن الثامن ق.م. سرقت في نيسان/ أبريل 2003 ـ صورة بعد إعادتها.



متحف بغداد، قاعة آشورية، نقش يمثل سرجون الثاني (خورساباد) القرن الثامن ق.م. أنقذ من السرقة



نمرود، قصر نزيربال الثاني، قبر أميرة مجهولة. القرنان التاسع ـ الثامن ق.م. اكتشفه مزاحم محمود سنة 1988. فارغ.

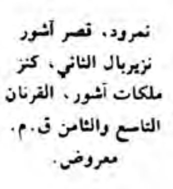


نمرود، قصر آشور نزيربال الثاني، باب الأسود المجنحة، القرن التاسع ق.م. حُرِست بعد النهب.



نمرود، قصر آشور نزيربال الثاني، تاج الملكة مخنـاة، نينوى، القرن التاسع ق.م. معروض.





نمرود، قصر آشور نزيربال الثاني، كنز ملكات آشور، القرنان التاسع والثامن ق.م. معروض.



نمرود، قصر آشور نزيربال الثاني، كنز ملكات آشور، القرنان التاسع والثامن ق.م. معروض.



متحف الموصل، قاعة حاترا، منهوبة، صورة بعد النهب.



متحف بغداد. إناء من أوروك الألف الرابع ق.م. مكسور، بعد إعادته.



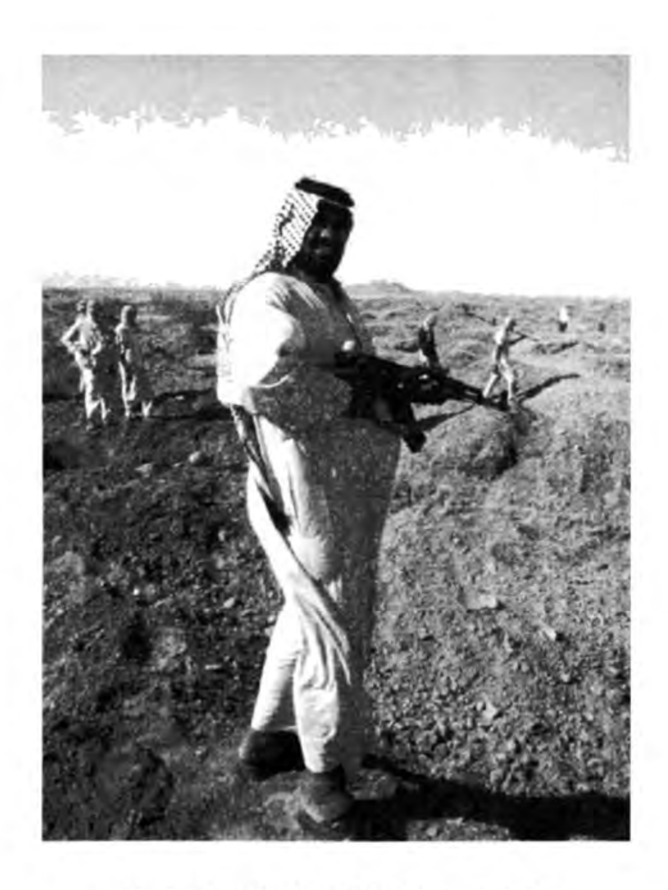
متحف بغداد، قاعة آشورية، ترميم تمثال مقطوع الرأس لشلمنصر الثالث، القرن الثامن ق.م.



أور وزقورة الإله نانّا، الألف الثالث ق.م. أصبحت قاعدة أميركية.



نيبور، زقورة إنليل، الألف الثالث ق.م. مسروقة.



غارة على إيسين، القرنان الثالث والثاني ق.م. «آل علي بابا»

يحيطون به، يجيب عن الأسئلة بأسلوب المربي الدقيق. وفي لحظة عابرة، يفرض التاريخ الذي يعلمه للمدنيين، في الجامعة، نفسه، في هذه القاعدة حيث يمر الفاتحون.

بابل هي في مأمن بعد الآن، لقد أحيطت بحواجز من الشريط الشائك، لكن ما يؤسف له أنه لم يبق شيء يستحق الحماية، لأن المدينة التي نحن فيها والتي تقول عنها رؤيا يوحنا «بابل العظيمة أم زواني الأرض ورجاساتها» (17، 5)، قد تعرضت لنهب الفاتحين القادمين من العالم الجديد. وظلت على مدى عشرة أيام بمتحفها وفسيفساءاتها وقاعاتها وشوارعها وممراتها وقاعاتها فريسة زمرة يغشاها الهذيان، وحمل كل ما يمكن حمله، دون أن يتدخل في الأمر رجال البحرية الموجودون هناك. هذا ما شرحه لنا بكل براءة، موظف، على صورة متزلج، صحبنا داخل القاعات قبل أن يعلن بلهجة مطمئنة:

«نحن نعمل على ترميمه، وسنجعله أفضل مما كان بعشرة أضعاف!». حسناً، يقول پوارو لو كان هنا، ولكن ماذا جرى؟ أي ذبابة لسعت جيش الولايات المتحدة وشلّته هكذا! لعشرة أيام في حين أنه قد انتصر ـ دون أي صعوبة ولا خطر ـ وأن ساعة «حرية العراق» قد دقت؟ لقاء في بغداد.

القسم الثاني

نهب بغداد


Al-Azamiya
Mosquée Imam Al-Adham
Saddam City
Palais al Azimiya
Choula
Ministère de l'Information
Musée archéologique
Palais Al-Salam
Complexe présidentiel
Palais présidentiel
Centre de défense aérienne
Al-Rachid aéroport militaire
Palais Radwaniya
Palais Abou Ghoureyb
Aéroport international
Dora

خارطة بغداد

الفصل الأول

الف اختلاس واختلاس

لم يعد منظر بغداد اليوم، منذ زمن طويل، منظر مدينة ألف ليلة وليلة المتداعية التي تتكلم عنها مدام ليندران وفكتوريا بطلتا قصص آغاتا كريستي. لقد بذل فيها صدام حسين جهده، كما فعل في بابل ليمحو كل أثر للماضي. إنه مُعَصْرِن، مهندس دولة بعيدة الاحتمال. مثل مصطفى كمال ورضا شاه وأمان الله خان، أراد، عندما تسلم السلطة سنة 1979، أن يبني مدينة للمستقبل ويبلغ بها قمة المجد. صدام إرهابي، خرج من ظلمات المؤامرات ويعتبر نفسه باني إمبراطورية وزعيماً حربياً. يظن أنه أصبح غلغامش وبغداد، بالنسبة إليه أوروك، ويرى في الإمام الخميني، الذي شن عليه الحرب، في أيلول/ سبتمبر سنة 1980، البطل غومبابا. وليس صدام، بالنتيجة سوى إنكيدو، وبغداد التي ورثها ابتناها، في منتصف سنة 763 م أبو جعفر المنصور، الخليفة الثاني من السلالة العباسية التي حلّت مكان بني أمية.

واستناداً إلى ما يذكره المؤرخ العربي أن المنصور بعد أن نام بالقرب من كنيسة مسيحية على شاطىء دجلة، هتف قائلاً: «هذا هو الموقع الذي سأبني عليه. تصله البضائع بواسطة الفرات وبواسطة دجلة وبشبكة من الأقنية»[1].

ومع ذلك، لم يكن بناء بغداد خلقاً من عدم، لأن الموقع الذي اختاره المنصور هو، في الحقيقة، موقع سلوقيا، العاصمة التي أسسها في القرن الرابع ق.م. سلوقس الأول نيقاتور خليفة الإسكندر الكبير، وأحرقها الإمبراطور تراجان ثم قيروس فخلت من سكانها منذ القرن الرابع. إلى أن أعلن المنصور عن مخططه.

إذاً، على خرائب العاصمة التي حلت محل بابل ابتنى المنصور بغداد التي كان اسمها الأول مدينة السلام. بنى على الضفة الغربية لنهر دجلة «المدينة المستديرة». تحتوي داخل جدرانها على القصر والمعسكرات وإدارات الخلافة. وتمتد السوق في الخارج. بشّرت خلافة المنصور بعصر ذهبي، ولكنه عصر ملك انتقد بطشه الإمام أبو حنيفة مؤسس أول المذاهب الأربعة الذي تهتدي بهديه السنّة، أرثوذكسية الإسلام ويسمى الحنفية أو المذهب الحنفي. ولد أبو حنيفة سنة 699 م، سجن

(1) الطبري، نقلاً عن ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، باريس، منشورات سُؤي 1993 ص 58.

لأنه رفض تعاليم القضاء والقدر. وأرغم على شرب السم سنة 767، أرغمه على ذلك، هارون الرشيد خليفة المنصور الذي كان لا يتساهل في أمر الانتقاد. وهارون الرشيد هو الذي أعطى الخلافة العباسية نبلها وعظمتها. تابع سياسة الفتوحات التي بدأها سلفه المنصور فاحتل أرمينيا وقيليقيا وكبادوكيا وأرغم بيزنطة على دفع الجزية وبعث برسول إلى بلاط شارلمان حيث ترك أثراً عميقاً.

وفي الداخل جعل وزيراه يحيى وجعفر البرمكيان، اللذان كان أجدادهما كهاناً في معبد زارا دشتي في بلخ، في أفغانستان، جعلا من بغداد مركز العالم. وفيها تأججت، في مطلع القرن العاشر الميلادي، المناظرة الشهيرة «أنا الحق» الذي استهلها الحسين بن منصور الحلاج، على أساس صراع طبقي، أثناء ثورة القرامطة الذين نجحوا بتأسيس حكم ثوري في بغداد. كان الحلاج يدعو إلى الاتحاد الصوفي بالله ويعترض على سلطة رجال الدين فأصدر عليه هؤلاء حكماً بالصلب. كان يميل إلى إسلام شعبي، إلى نوع من العلمانية أخاف الخليفة المقتدر الذي شفاه من عارض حمّى. قبره، مثل ضريح أبي حنيفة، في بغداد، ليس بعيداً عن جامع عبد القادر الجيلاني، مؤسس مذهب القادرية التصوفي الذي له أتباع في مجمل العالم الإسلامي، وكانت بغداد فعلاً، كما كانت قبلها بابل، مركز العالم. كان يقصدها الناس

من أقاصي الأرض ليطلعوا على أبحاث الخيميائي جابر بن حيان، والمشائي الكندي وعلى حكمة الفلاسفة، حنين بن إسحاق الذي ترجم غاليانوس، والمنجم ثابت بن قرة وعلى معادلات محمد بن موسى الخوارزمي واضع علم الجبر، وعلم الأمراض للرازي، وأبحاث المنطق عند الفارابي، ومؤلفات المؤرخ الشهير المسعودي، وأبحاث ابن سينا، شارح أرسطو وعلى فلسفة الغزالي. أنوار كثيرة جعلت الفارسي سيد حسين نصر، أستاذ جامعة الهيكل في فيلادلفيا يقول:

كان الغرب، بعد قرنين من انتشار المسيحية في الشرق الأدنى سنة 313، الخاضع للهيمنة المسيحية، لا يزال غارقاً في البربرية، في حين أن عالم خلافة هارون الرشيد، كان بعد قرنين من محمد، ينعم بثقافة أعظم من ثقافة زمن شارلمان، معاصره، بالرغم من أسبقية الغرب[1].

لكن بغداد سقطت بين يدي هولاكو، حفيد جنكيزخان سنة 1258، ثم اجتاحها تيمورلنك سنة 1401 واحتلها سليمان القانوني سنة 1638، وأصبحت مدينة ألف ليلة وليلة مجرّد ولاية في تركيا الآسيوية. وفي نهاية القرن التاسع عشر ضربها الطاعون سنة 1831، ثم اجتاحتها المجاعة سنة 1871 فأصبح عدد سكانها لا يكاد يبلغ مئة ألف نسمة. لم يتوقف هذا الانحطاط

(1) سيد حسين نصر، العلم والمعرفة في الإسلام، دار سندباد 1979.

الطويل الأمد إلا ابتداءً من سنة 1920 عندما ولد العراق في ظل الانتداب البريطاني، وانطلقت نهضته غداة الحرب العالمية الثانية عندما نالت البلاد استقلالها. لكن التوسع الذي صنع، من جديد، من بغداد حاضرة الشرق الأوسط، لم يحدث فعلاً إلا بعد حرب كيپور سنة 1973 وبعد ارتفاع سعر المحروقات. وعند ذاك سطع نجم صدام حسين.

ورث المدينة القديمة القائمة على الضفة الشرقية لنهر دجلة. إنها عربية وعثمانية. تشرف قصور المماليك بمشربياتها، التي تعد بالآلاف، على أزقة السوق التجارية التي تتلوى بين القصر العباسي ومدرسة المستنصر القرآنية. وشارع الرشيد الذي يخترق السوق على طول نحو سبعة كيلومترات هو ثغرة ثقبت في بداية القرن العشرين. وعلى الشاطىء الغربي الحي الجديد المنظم حول محطة السكة الحديد التي بناها العثمانيون في الوقت الذي شقوا فيه خط سكة الحديد الذي يصل القسطنطينية ببغداد. يحتوي الحي على قصور وأبنية جديدة، وفيه أيضاً أبنية المتحف الوطني الذي أسسته جرترود بك، وهناك بنى صدام بغداد الجديدة، وهي مدينة تفتقر إلى الأناقة والذوق تخترقها شوارع عريضة تنتصب فيها ناطحات السحاب والقصور التي تشبه القلاع، إنها مدن في المدينة، محاطة بالأسوار تحرس أبنيتها أبراج تقوم عليها تماثيل عملاقة قلما تبتسم. أصبحت بغداد في أقل من ثلاثين عاماً مدينة

ضخمة تعد خمسة ملايين نسمة. ولكنها أيضاً تكنة هائلة.

بلغناها بعد أن اجتزنا متاهة الطرقات وتحويلات الاتصال والشوارع الدائرية التي تصل قلب المدينة بدجلة. وفي البعيد تكتوي بالشمس الحارقة هياكل المصفحات التي فقدها صدام في معارك شهر نيسان/ أبريل، وعند المفترقات دبابات أبرامز الضخمة تؤمن الحراسة وتحميها كتل من الباطون موضوعة على قارعة الطريق لتعرقل سير الشاحنات الانتحارية، بينما تسيِّر دوريات مؤلفة من أرتال من عشرات العربات يقوم بها الجنود الأميركيون في مهمة السهر على المدينة. في غرفة القيادة، السائق والحارس، وعلى السطح، الرماة ورشاشاتهم، جميعهم في حالة استنفار. وفي سماء المدينة، المروحيات، تلك الحشرات الضخمة الطويلة المنقار تكثر من دورات المراقبة دون كلل أو ملل. تبدو بغداد وكأنما يد من حديد تمسك بها ولكن ليس هذا الانطباع سوى وهم مخادع. والواقع أن العاصمة في فوضى عارمة، وليس الجيش الأميركي ولا الشرطة العراقية الجديدة الهشة من يسن القوانين، ولكنه الخليط الذي يتجاور ويتصادم. أنصار صدام حسين، قوميون لجأوا إلى المقاومة، إسلاميون سنيون وشيعة من جميع الانتماءات، عملاء الخارج، قطاع طرق وزعماء عصابات، جميعهم يجدون في هذه الظروف نعمة وحظاً سعيداً. كل شيء، في بغداد، مباح لعلي بابا، مراقبة الشوارع،

الساحات والمنازل حيث جميع التجارات المحظورة: أسلحة، دخان، مخدرات، أموال، تحف فنية، عاديات، كله متوفر ومتاح، له كلمة نافذة في معاملات السوق. السلب، الابتزاز، الاختلاس، الإغارات، الهجمات المسلّحة هي أسلحته يستخدمها دون تردد.

كما في البدء، تفرض القوة وجودها، ولكن ينقصها السلطة. تيامات يعود باستمرار، على رأس قوى الخواء، الفوضى.

عندما وصلت القوات الأميركية إلى هنا، في شهر نيسان/ إبريل في نهاية الحرب الخاطفة التي دامت أقل من ثلاثة أسابيع، وتشتتت وحدات الحرس الجمهوري الحاجز الأخير لنظام البعث، عند ذاك تملصت بغداد من براثن الطاغية! لقد تحرر العراق. وفي واشنطن تبختر دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع ونائباه بول وولفوويتز ودوغلاس فايت والرئيس جورج بوش (الإبن) الذي يثق بهم، تبختروا جميعاً بكبر وخيلاء.

كان هذا الانتصار في نظرهم الحجة الدامغة بأن الاستراتيجية المتبعة في العراق هي الاستراتيجية الصحيحة، ظلت الحرب محدودة بالقوى المشاركة (تكاد لا تبلغ 250.000 رجل مقابل ضعفي ذلك في سنة 1991)، وبدوامها كحرب خاطفة عزيزة على مجالس الحرب منذ الحرب العالمية الثانية، أتاح

الاستخدام الكثيف للأسلحة الجديدة والوسائل المصفحة والوحدات المهنية المتخصصة والمدربة تدريباً كاملاً، أتاح تحقيق قوة ساحقة. والضربات التي نفذت عن بعد في العمق بواسطة الطائرات والصواريخ ثبتت العدو وأجبرته على الإقلاع عن كل حركة توسع. تخطيط منهجي، عمليات ووسائل مستخدمة جعلت الانتصار الحاسم والشامل ممكنًا. إنه انتصار «رؤية 2020»، العقيدة التي صاغها دونالد رامسفيلد وبول وولفوويتز. وهي تتيح للولايات المتحدة التدخل في كل لحظة وفي كل مكان في العالم ضد هذه الآفات التي تمثلها، في نظر الرئيس بوش، منذ هجمات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، الدول الشريرة والمنظمات الإرهابية.

وفي الثالث من نيسان/ أبريل 2003 بدا كل شيء وكأنه يؤكد نجاح عملية «الحرية للعراق» عندما هاجمت، في اليوم الخامس عشر للحرب، فرقة المشاة الثالثة المؤللة، مطار بغداد الدولي الذي لا يزال يحمل اسم صدام حسين. كان جنود المقدم إريك شوارتز ورجال زميله المقدم سكوت روتر الذين شقوا طريقهم انطلاقاً من الكويت، يعرفون طريقهم عن ظهر قلب، والعمل الذي قاموا به تكرر أمامهم في أدق تفاصيله في فورت ستيوارت في جورجيا، قاعدة فرقة المشاة الثالثة، منذ أربع سنوات. سقط المطار في ساعات معدودة، والسيناريو الذي كُرِّر مئات المرات نفذ بحذافيره. وفي السادس من نيسان/ إبريل تم

تطويق العاصمة. وفي السابع منه دخل المارينز بغداد بمحاذاة نهر دجلة. ونشبت معركة عند أطراف القصر الرئاسي على الشاطىء الغربي للنهر. وفي اليوم نفسه وبعد أن صدت فرقة المشاة الثالثة هجوماً معاكساً شرساً قرب جسر الجمهورية، شمال القصر الرئاسي، سيطرت على الشاطىء الغربي. وفي اليوم الثامن تمّ الاستيلاء على القصر الجمهوري ووسط المدينة فخفت حدة المعركة وأصبحت الاشتباكات متفرقة. وتشتت الحرس الجمهوري والحرس الرئاسي وآخر تشكيلات النظام المريعة. ولا تزال بعض العصابات غير النظامية تزعج العملاق الأميركي ولكن الضربات التي توجها إليه ليست سوى لسعات بعوضة. الوضع هنا بعيد جداً عن الوضع في ستالينغراد الذي توعد به صدام حسين وبدون صعوبة تذكر تمكن الجيش الأميركي من بلوغ أهدافه: وزارة النفط التي تأمن محيطها للحال، الثكنات والقواعد الجوية، جميع النقاط الاستراتيجية والعاصمة العراقية وفيها المحطة المركزية بجوار المتحف الوطني العراقي، حيث يرقد الآلهة والملوك وأبطال العصور القديمة.

في الثامن من نيسان/إبريل، تواجه وحدة المقدم إريك شوارتز على جوانب المحطة المركزية، بعض المقاومة: ميليشيا حزب البعث تشغل المتحف، وكانت رشقة قوية من طلقات نارية كافية لطردهم. إن فرقة المشاة الثالثة هي آلة حربية تعمل بدون

خطأ. لكن شوارتز يرى مدنيين يهربون من البناء. ويهرول نحوه حارس متحف لاهثاً ويقول: «حضرة المقدم! لم يبق أحد، سوى ثلاثة حراس عزل، لحماية المتحف الوطني العراقي، يحوي هذا البناء ثروات لا تقدر بثمن «إرث بلاد الرافدين». إفعل شيئاً لحمايته».

كان هذا الالتماس يعني أن على وحدة شوارتز أن تضيف، بعد الآن، إلى مهمتها العسكرية البحتة، مهمة أخرى تقوم على تحمل مسؤولية الحفاظ على النظام في القطاع الذي احتلته. جميع عناصر الاحتلال («المرحلة الثالثة») تمثل هنا. وبالمقابل، فإن سيناريو فورت ستيوارت يظل، في موضوع الاستقرار، صامتاً، ليس من مهمة شوارتز أن يحمي الأملاك ولا الأشخاص، كم بالأحرى المتاحف، فلم يأبه لنداء الحارس العراقي.

وفي التاسع من نيسان/ إبريل، يكرر محسن كديم، أحد حراس المتحف الثلاثة، الطلب إلى جنود فرقة المشاة الثالثة الموجودين بجوار أبنية المتحف. فلم يمضِ الوقت بعد: فالبناء لم ينتهك بعد، ولا تدور أي معارك في حي المحطة. يكفي أن تتمركز دبابتان وبعض المشاة أمام الأبواب لكي تتأمن حراسة المتحف. لكن المقدم إريك شوارتز الذي لم يتلقَ أي معلومات بهذا الخصوص، لم يستجب لنداء محسن كديم. جيش الولايات

المتحدة جيش ديمقراطي. إذا قالت القيادة إنه لا داعي للاهتمام بقضية حفظ الأمن ـ وهذا ما أكده پول وولفوويتز ودونالد رامسفيلد ـ حينئذٍ لا يتكلف أحد هذا الأمر. إن مهمة رجال شوارتز الأولى هي تأمين القطاع الذي تجري فيه المعارك وليس المحافظة على المتحف ولو كان أول متاحف العالم لفنون بلاد ما بين النهرين.

ولكن في التاسع من نيسان/ إبريل، تحدث أشياء غريبة في مملكة جورج بوش، يصل المقدم بريان ماك كوي من فوج البحرية الرابع، ذات صباح إلى ساحة الفردوس، على الضفة الغربية لنهر دجلة ويأمر رجاله بإسقاط التمثال «القبيح» لصدام حسين الذين ينتصب في وسط الساحة. وكان هذا التمثال قد أقيم منذ سنة وهو الآخر تاريخياً من بين الأبنية التي لا تعد ولا تحصى المخصصة للطاغية. إنه نصب رمزي، لكن النقيب لويس التابع للمقدم يقول متعجباً:

«ولكن، يا سيدي، أظن أنه لا يحق لنا تحطيم تماثيل صدام حسين!»

ـ أيها النقيب لويس! إن هذا اليوم يوم خاص. حطموا هذا التمثال[1]». طوّق التمثال الضخم بسلسلة حديد ربطت بملفاف

---

(1) نقلاً عن ريمي أوردان، «9 نيسان/ إبريل 2003، اليوم الذي احتل فيه المقدم بريان ماك كوي ورجاله بغداد»، «لوموند»، 11/ 4/ 2003.

عربة مجنزرة اقتلعته من مساميره. قطع رأس صدام وانهال عليه العراقيون بالمطارق. كل ذلك حدث أمام أبواب فلسطين وشيراتون، الفندقين الفخمين اللذين يقيم فيهما بعثات فوكس نيوز وسي.إن.إن، وسي.بي.إس، وإن.بي.سي، وإي.بي.سي. قنوات التلفزيون الأميركية التي تنقل الحدث مباشرة. وتساءل الجميع ما إذا كان بريان ماك كوي قد تصرف بصفة شخصية أم أنه تلقى أمراً. إن كل شيء في عملية «تحرير العراق» هو كما نعلم، مصمم بدقة متناهية، بدءاً بالعمل الصحافي، أي ما يجب أن يرى وما يجب ألا يرى. الصورة التي صنعها ماك كوين كانت أساسية: لقد ظهرت في الصفحات الأولى من صحف الغداة. حتى ولو كان المقدم يدخن السيكار فمن الصعب أن نقول إنه تصرف بدون تعليمات. رئيس الولايات المتحدة، قائد الجيش هو الذي يوجه العمليات الحربية ويقرر الأعمال السياسية كالتي ينفذها المقدم ماك كوين، حين يقتلع تمثال الطاغية. الجيش الأميركي جيش ديمقراطي.

والحقيقة هو أن يوم التاسع من نيسان/ إبريل، كما يقول، بلطف، ماك كوين، هو «يوم خاص». لقد قرر الضابط الآمر في المحلة أن يترك الناس يدخلون إلى القصر الرئاسي الذي سقط. إنه قرار في الدرجة القصوى من الأهمية. إلا إذا كان العقداء الأميركيون قد تسلموا، في ذاك النهار الخاص، السلطة داخل

الجيش، كزملائهم الفرنسيين في الجزائر منذ 45 سنة، هذا القرار لا يمكن أن يكون قد اتخذ إلا من قبل المراجع العليا، لأن هذا القصر، مثل البيت الأبيض، والإليزيه أو قصر باكنغهام، يمثل مركز الدولة العراقية حتى ولو كانت مجرمة. إن صحة هذا الافتراض الثاني لا يثير أي نقاش اليوم. لقد كتب المحرر الصحفي الأميركي نيكولا كريستوف، في مطلع شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 2003، دون مراوغة، ما يلي:

«يتضح من مجرى الأحداث أن بوش ونائب الرئيس ديك تشيني اعتقدا أن القوات الأميركية ستستقبل، كما توقع تشيني، «استقبال المحررين». إن السياسة التي تقوم على اعتبار الرغبات حقائق تشل احتلال أميركا للعراق. فمن الناحية المبدئية، لم يمنع المسؤولون الأميركيون عمليات النهب، لأنهم اعتبروا ذلك مشهداً هزلياً مسلياً»[1].

ونقل «المشهد الهزلي» مباشرة بواسطة أقنية العالم أجمع. ويُقال عادة، عندما يحطم شعب تماثيل طاغية، عندما يهاجم قصره، سواء كان ذلك قصر فرساي، قصر الشتاء، أو قصور ماركوس في مانيلا، أو قصور الشاه في طهران، إنه يقوم بثورة. تلك هي الرسالة التي وزعتها الأقنية التلفزيونية التي عرضت

---

(1) نيكولا د. كريستوف، في مقال بعنوان: «على الرئيس أن يعلم أن التفاؤل قد يكون شؤماً» نيويورك تايمز 6/ 11/ 2003.

«قبضايات» بغداد ينهبون قصر صدام حسين. هل هي الثورة؟.

والمزعج أن الشعب كان غائباً عن هذه الحفلة الماجنة. لقد كان في نهاية شهر من القصف العنيف لاجئاً في كهوفه كالسجناء الذين كان ملك لاغاش يصطادهم في شباكه على مسلة النسور. وفي الواقع، إن ما رآه العالم ليس سوى نهب منظم، تخريب آثار على نطاق واسع، مشهد في غاية البشاعة يمثّل بتوقيع على بياض وضعه رئيس الولايات المتحدة الأميركية. هذا المثل المفجع يطلق عملية نهب بغداد بشكل حاسم. وينطلق هذا الشعب المحروم، تقوده عصابة لصوص نبتت لها أجنحة عندما أمر صدام حسين بفتح سجونهم قبل فراره، ينطلق بحرية تامة مهاجماً الأبنية العامة للمصارف والتجارة، والأملاك الخاصة بدون أن يحول الجيش الأميركي دون هذا النهب المنظم. ليس ثمة من مسلة تعرض نهب نينوى أو بابل، ولكن هناك في بغداد آلات تصور في كل مكان، وبإمكان جورج بوش، كسائر المشاهدين، أن يشاهد مباشرة هذه العربدة الماجنة فيما يقف جنوده جامدين، أسلحتهم عند أقدامهم. وعلى مقربة من مستشفى الكندي، الذي يحمل أثاثه وأجهزته وأدويته جماعة جشعة. فيما الجرحى لا يزالون يتقاطرون للمعالجة، ثلاث مصفحات وثلاث زمر عسكرية تتخذ أماكنها. وكانت طلقة إنذار كافية لتشتت عصابة السارقين. الأطباء والصحفيون يتوسلون الأميركيين طالبين إليهم

التدخل، فيتصل قائد المفرزة برئيسه المباشر فلا يبدر منه أي ردة فعل فيجيب: «آسف، ليس لدينا أوامر، لا نستطيع فعل شيء!»[1].

وتبدأ الفوضى العارمة. أكثر الأبنية العامة في بغداد نهبت، باستثناء وزارة النفط والأمكنة التي يقيم فيها الأميركيون. وفي العاشر من نيسان/ إبريل بدأت الاقتحامات والغارات، فقد أُغير على المكتبة الوطنية ومجموعاتها الضخمة من مخطوطات العصور العثمانية والبويهية والعباسية وآلاف اللوحات القديمة. ومكتبة الجامعة خرِّبت ونُهبت ثم أُحرقت. وهذا ما حدث أيضاً لأبنية أكاديمية العلوم. آلاف المخطوطات القديمة اختفت من مكتبة المؤسسة الدينية الخاصة بالوقف. المصرف المركزي هوجم وسرق. إنه انتصار اللصوص والجريمة المنظمة. ولم يكن ذلك سوى البداية.

وفيما تجري عمليات القتل والسرقة والابتزاز، تحول الجيش، بلا أوامر رادعة، من حال الشك إلى حال الجنون. أيجب أن يكون ملكياً أكثر من الملك؟ فإذا كان كل شيء، مسموحاً...

---

(1) رواية باتريس كلود «أسلمت بغداد للنهب الفوضى، أمام الجنود الأميركيين اللامبالين» لوموند 12/ 4/ 2003.

والمفارقة، في مطار صدام حسين الذي دعته الحكومة الأميركية «مطار بغداد الدولي»، هي أن عناصر فرقة المشاة الثالثة، بعد أن فقدوا كل توجه، هجموا على المحلات التجارية وسلبوا محتوياتها: كحول، عطور، علب تبغ، ساعات، حلي، ألبسة ثمينة، كل ذلك لم يبقَ منه أثر. نهبت المحال التجارية، أبواب المكاتب حُطّمت، الزجاج والواجهات كسّرت، الأثاث، المكيفات، الحواسيب، جميعها شحنت. وعلى أرض المطار، هاجم جنود فوضيون ثملون أسطول الطيران العراقي وعاثوا فيه فساداً.

نهبت الطائرات النفاثة وبكلمة أدنى كشطت، دون تدخل من الرؤساء. حوّل الجنود الذين ارتكبوا السرقات إلى المحاكم العسكرية، ومع ذلك لن تصدر بحقهم أي أحكام. فهذا تحصيل حاصل، وإلا سيتعرض مئات الجنود والضباط للأحكام. وصرح أحد مسؤولي وزارة الدفاع: «ليس بالإمكان أن يكون ذلك من عمل الأميركيين. كان المطار محروساً عندما حصل ذلك»[1]. وقدر قيمة هذه الغزوة الصغيرة بمئة مليون دولار على الأقل.

---

(1) رواية سيمون روبنسون: «إسقاط الطائرات بطريقة خاطئة» جريدة التايم 14/ 7/ 2003.

الفصل الثاني

ولا متحف في العالم

بدلنا بسيارتنا التي تسير على كل الأراضي (4×4) سيارة شيفروليه طويلة رصاصية اللون وهذا ما يجعلنا «وزراء» إذا كانت النوافذ التي تفتح آلياً وجهاز التكييف لا تزال تعمل. وكلف أبو أيمن أحد أبناء عمه المدعو حسن ليقود بنا السيارة - إنها مؤسسة عائلية. كان المتحف الوطني العراقي وملحقاته الذي توقفنا أمامه موضوعاً تحت حراسة وحدة أميركية مجهزة بمصفحات ودبابات ثقيلة وعربات لنقل الجنود. وكان الجنود التعساء المسربلون، في عز أوار الصيف، بسترات واقية من الرصاص، يكادون يختنقون. ويصحبنا خادم، سعيداً بأنه يستطيع إزالة الخدر عن ساقيه، إلى مكاتب الإدارة. كانت القاعة كالممرات التي اجتزناها مزروعة ببقايا مختلفة، تمثال مقطوع الرأس يرقد في إحدى الزوايا، وفيها أيضاً مجموعة من اللوحات المثلمة لم ترتب بعد في صفوف. أدخلنا إلى مكتب رجل ضخم الجثة، على شيء من المرح، يشغل وظيفة أمين سرّ، يجلس وراء طاولة خاوية مثل الصحراء

الغربية ويهتم كثيراً بالمحافظة على كرسي يجلس عليه، لأنه الوحيد، كما يقول، الذي سَلم له بعد عمليات نهب نيسان/ إبريل. القاعة فسيحة وهي، بالمعنى الحرفي، «منظّفة». منظّفة من الآلات الكاتبة والحواسيب وأجهزة التكييف والملفات، من كل شيء، حتى من المفاتيح الكهربائية.

لقد وصلنا في وقت غير مناسب، فالجميع في اجتماع، وخاصة الدكتور دوني جورج يوكهانا الذي نود أن نراه «بشكل خاص». ويخبرنا أمين السر أن لا أحد يعرف متى ينتهي الاجتماع، وعلى أي حال ليس قبل أقل من ساعة. ولكي نقتل الوقت قمنا بجولة بجوار المصرف المركزي في شارع الرشيد، قرب السوق التجارية في قلب المدينة القديمة. شارع الرشيد، شريان تجاري محاط بالمنازل والأعمدة التي تعود إلى العصر العثماني، وكان في تلك الساعة مكتظًا بالسيارات المتوقفة إلى جانبيه وبالحمالين المثقلين بالأقمشة، ببالات القطن، بالألبسة، بالأواني والمواعين المختلفة، بمنصات البضائع، بالمتسكعين، وبأناس يهرولون في كل اتجاه. إنه ازدحام كثيف، يصعب اجتيازه، وجدنا أنفسنا فيه، بعد قليل، نقع أسرى: يستحيل علينا التقدم أو التأخر. ماذا يصنع شرطي السير؟ «ليس ثمة من شرطي على الإطلاق»، هذا ما قاله حسن بعد أن ثاب إلى رشده. فلم يبق علينا، والحالة هذه، إلا أن نصبر الصبر الجميل. ويبقى

علينا، هكذا، نحو ساعة لنجتاز هذه الثمانمائة متر التي تفصل البناء الضخم للمصرف المركزي ـ الذي كان يحوي قبل الحرب، على ما يبدو، على قسم من خزينة الدولة ـ عن المتحف الوطني. هذا البناء الضخم، الذي قصف بشراسة قبل أن ينهب، هو الآن بحراسة الجيش الأميركي، مصفحات، جنود متشنجو الأعصاب، هذا كل ما رأيناه وهو لا يغري بالتوقف عنده.

عدنا إلى المتحف في حدود الساعة العاشرة والنصف، لم يكن الاجتماع قد انفضّ بعد. وهذه المرة يتملص أمين السر من مهمته ويصحبنا نحو مكتب ضيق، أجرد ومنكوب مثل مكتبه حيث تستقبلنا طالبتان. أميرة، فتاة سمراء جميلة سرحت شعرها الطويل الكثيف تسريحة جميلة، وياسمين ملتحفة بدرع سوداء لا يظهر سوى وجهها ذي الملامح الدقيقة الرشيقة. وفي حوزة الفتاتين جدول أعمال الدكتور دوني جورج مدير الأبحاث في المتحف، وقد طمأنتانا بأنه لن يتأخر. أميرة مسلمة سنية، تثق بنفسها ثقة الفتيات الموسرات. تتحدث بدون تكلف فيما تصغي ياسمين إليها بصمت. ستقدم أميرة قريباً أطروحة دكتوراه يدور موضوعها حول لوحات مسجلة في عهد سرجون الأول، منذ أربعة وأربعين قرناً. عندما أصبحت الآكادية اللغة المحلية في بلاد ما بين النهرين. والكتابات التي تدرسها تعالج مسائل اقتصادية: يتفق تحريرها مع فترة بدأ فيها الانتقال من نظام الهياكل الذي يوجه اقتصاد زمن

سومر إلى نظام الاقتصاد التجاري الذي فرض نفسه في الألف الثاني.

وعند الظهيرة تتوارى الطالبة مستعجلة العودة إلى منزلها، خوف علي بابا الذي يرتاد شوارع المدينة. خرجت تتبعها صديقتها ملقية على وجهها حجاباً أسود تلبسه النساء الشيعيات عندما يخرجن من المنزل. وبقينا ننتظر وحدنا. وأخيراً عند الواحدة والنصف أطلّ علينا الدكتور دوني جورج لطيفاً بشوشاً. إنه رجل قصير بدين، لكنه كثير النشاط، يتألق نظره ذكاء ولغته الإنكليزية لا شائبة فيها. دوني جورج مسيحي وهو اختصاصي بعصر ما قبل التاريخ، العصر الذي سبق سومر، بالرغم من أن التاريخ المعاصر قد أدركه، حتماً، في هذه الأيام الأخيرة. يتكلم عن آلاف الأشياء المسروقة في أيام نيسان/ إبريل التي عاشها كسائر موظفي المتحف.

الحادي عشر من نيسان/ إبريل، الهدوء يخيم على محيط المتحف الوطني العراقي. وبفضل قاعدة اقتسام التحف الفنية التي ما فتيء التقيد بها يزداد صرامة منذ عهد الانتداب والتي أصبحت مصلحة العاديات العراقية المستفيد الأساسي منها بعد الاستقلال سنة 1946. تحتوي قاعات المعرض والمستودعات على أفضل ما عثرت عليه الاكتشافات العظيمة التي أنجزت في بلاد ما بين النهرين في القرن العشرين.

وفي تقدير حديث لماك غير جبسون يقول: «ليس من متحف

آخر يستطيع أن ينافس متحف بغداد بمجموعات التحف الفنية لبلاد ما بين النهرين»[1]. وجبسون هو خبير من المؤسسة الشرقية في جامعة شيكاغو.

تعود أقدم الآثار إلى ما قبل التاريخ الذي بدأ في جَرمو وحسّونا شرق وجنوب كركوك، في سامراء، كردستان، عندما أصبحت الحياة، في الألف السادس، حضرية. بلغت هذه الثقافات تل حلَف في أعالي الفرات وسامرّا على نهر دجلة، شمال بغداد، حيث أنتجت الآجرات الأولى ذات الألوان المتطورة. ومن عُبيد، قرب أور جلبت التماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين المشوي والآجرات الملونة التي تؤكد على وجود السومريين، في بداية الألف الرابع، في منطقة الناصرية. إن هذه المجموعات ذات أهمية علمية أساسية. فهي موجودة في صميم النقاش الدائر حول أصل السومريين: هل هم غزاة جاؤوا من الخليج الفارسي كما يظن أندريه پارو[2] أو أنهم، على العكس، مواطنون أساسيون مستقرون كما يتصور دوني جورج، الذي يجمع وظيفتي باحث في المتحف بالإضافة إلى كرسي استاذية ما قبل التاريخ في جامعة بغداد!.

---

(1) الكنوز المسروقة من العراق.
http:/www.oi.uchicago.edu OI/IRAQ/Iraqdatabasehome.htm.

(2) أندريه پارو، سومر، إنسيكلوپيديا أونيفرسالس 1968.

وهو (دوني جورج) يؤكد على أنه بدراسة هذه العاديات والاحتفاظ بها تتعلق الإجابة عن أحد أخطر الألغاز في تاريخ الإنسانية. وستتيح الإجابة، حتماً، فهما أفضل وتقديراً لفن السومريين. يخبرنا إناء وقناع أوروك (3000ق.م.)، وأبو، الإله الأعظم والإلاهة العظمى في تل أسمر والقيثارة ذات رأس الثور في مقبرة أور وبرونزات خافاج، تخبرنا جميع هذه الأشياء عن ماهية المبادىء والأفكار السومرية. ولكن يبقى أن نكتشف أي علاقات كانت تربطهم بمصر أيام سلالات تعنيت والإمبراطورية القديمة. يؤكد الفن الآكادي، بواسطة قناع سرجون الأول أو مسلة نارام سين، منذ بداية الائتلاف الطويل المدى بين السومريين والساميين، من أين ولدت بابل حمورابي، ومع ذلك، يجب أيضاً تحديد ديناميتها بشكل أفضل. ترينا الثيران ذات الرؤوس البشرية المسجلة باسم أشونزيربال الثاني (884 ـ 858) والمنحوتة الضخمة في خورساباد، حيث نرى سرجون الثاني (722 ـ 705) يستقبل زائراً مميزاً، عظمة أشور وقد أصبحت قوة عالمية.

كانت زيارة متحف بغداد، ذات مرة، سفراً في الزمن الخالي، واستكشافاً لذاكرة العالم. كان يصنع هناك جردة بعصر ونصف العصر من علم الآثار، منذ أعمال الأورويين بوتا ولايارد في 1840 ـ 1850، في قصور خورساباد ونينوى إلى أعمال

العراقي مزاحم محمود في قصر نمرود في 1988 ـ 1989. لن تكف هذه الاكتشافات عن إثارة دهشة الغرب وتغييره فهو قبل ولادة علم الآشوريات لم يكن يعرف عن موضوع أصوله سوى ما تقوله التوراة. وفي سنة 1846 قرر مجلس نواب المملكة الفرنسية تمويل نشر أعمال بول إميل بوتا الذي ينقب في خورساباد قرب الموصل. فأعجب بذلك مؤرخ في مجلة الإلّوستراسيون الأسبوعية الباريسية الشهيرة بقوله:

> *إن لهذين الشعبين [المصري والكلداني] صلة وثيقة بنا نحن الشعوب الحديثة؛ وليست صفحات تاريخنا، بنوع ما، سوى تتمة لتاريخهم ولو لم تقتبس فنوننا من فنونهم ربما كانت لا تزال في طور الطفولة لأننا نراها تسير خطوة خطوة على أثر المدنية القديمة التي يتراءى إيحاؤها السرّي كل يوم شيئاً فشيئاً... الشعب الكلداني الذي أسس إمبراطورية أشور العظيمة، الشعب العظيم المقيم بين الهند الأسطورية ومصر وفينيقيا، هو حلقة ضرورية تصل سوية جزأيْ سلسلة الحضارة التي تلف العالم*[1].

ما يتضح من هذا القول، هو الاعتراف بثورة عميقة في المعرفة. وقد أثار اكتشاف نينوى من قبل الإنكليزي لايارد، بعد

---

(1) «اكتشاف التاريخ القديم لنينوى في الموصل». مجلة الإلّوستراسيون عدد 174، تاريخ 27/ 6/ 1846.

ذلك نقاشات عنيفة. وفي سنة 1850 أيد أقواله الأكاديمي الفرنسي سولسي فيناصبه العداء هوفر، الناطق باسم المدافعين عن عدم الحساسية التاريخية للنص التوراتي ولرواية سفر التكوين. وكان هوفر مؤمناً إيماناً صلباً بأن نينوى قد «سحقت ودُكّت حصونها وسوّيت بالأرض منذ 2475 سنة». يذكّر بأقوال الأنبياء.

سأمحو اسمك (يا نينوى) من كل ذكر، سأحطم أوثانك، الحجر والمعدن في بيت إلهك. تفتح أبواب الأنهر ويذوب القصر. نينوى هي كالمستنقع، ليس فيها سوى ماء، لقد دمرت. إنها قفر، أزيلت من الوجود، أين هو الآن مسكن الأسود هذا؟.

ويتابع هوفر مخاطباً سولسي:

حسناً، سيدي، اتكذّب الأنبياء، مصرًا على دعمك فكرة أن الخرائب الجميلة الرائعة بكاملها، في جوار الموصل، التي يجب أن تزيل من العقل كل فكرة تدمير عنيف كامل، هي خرائب نينوى؟ أتتعامل مع الكتاب المقدس كما تعامل كزينوفون وديودور؟[1].

يوجّه اكتشاف حضارات ما بين النهرين الذي زامن الثورة الصناعية والعلمية، أكثر من اكتشاف مصر الفرعونية قبل ذلك بنصف قرن، يوجه الضربة القاضية للمعتقدات التي يرويها سفر

(1) «كتاب مفتوح» الأونستراسيون، 2/ 3/ 1850.

التكوين وأسفار الكتاب المقدس. فيجد الغرب هويته تتغير، كما يحدث في العراق في بداية العشرينات من القرن العشرين عندما أشرفت جرترود بل على متحف بغداد. إن رهانات علم الآثار الآشورية هي أساسية.

ليس من قوة عظمى في الغرب إلا وتريد أن يكون لها ورثة في بلاد ما بين النهرين. وكان ذلك زمن نواب القناصل. سارزيك في مركز البصرة يهيمن على لاغاش، في حين أن هنري راولنسن، عميل سياسي في بغداد، يتآمر ليطرد الفرنسيين من العراق. وفي منعطف القرن العشرين يشغل الألمان، مع كولدواي بابل ثم آشور، في حين أن الأميركي أودان يخيِّم في أسوار نيبور. وفي نهاية السلطنة العثمانية 1918 يخلي الدبلوماسيون مواقعهم لعلماء الآثار، السير ليونارد وولي ينقب، كما هو معروف، في أور باسم المتحف البريطاني، وبريستد، من المؤسسة الشرقية في تل أسمر وديالا. ويبعث اللوفر، على عجل، أندريه پارو إلى لارسا، وتورو دانجان إلى تل أسمر، وجوردان ونولدكه وهاينريتش هم في أوروك، من قِبَل (فروه أندڤور غيشِشْتِه) في برلين. أعلن الاستقلال، وبعد زوال الرايخ الثالث، تابعت مصلحة الآثار في العراق استقبال البعثات الأجنبية. عاد پارو، ومالوان أيضاً بانتظار أن تعد جامعة بغداد جيلاً جديداً من الباحثين العراقيين.

لأن حزب البعث، الذي أسسه ميشال عفلق، هو حزب قومي يبحث عن هوية عربية حديثة، متحررة من أي خصوصية إثنية أو دينية، متعطش للاكتشافات لأنه يسعى إلى إيجاد جذوره في التاريخ وليس في الدين، شُجّعت العلوم التاريخية وتشكل جيل من الباحثين في الستينات من القرن العشرين. وكان عليهم أن يحسبوا حساب صدام الذي يؤسس لعبادة الشخصية ويحاول أن يستأثر بإرث ما قبل الإسلام. ليس على المرمّمين أن يحيوا بابل حمورابي، بل الجشع المجنون لدكتاتور يحفر اسمه على جدران المدينة القديمة التي رممت بطريقة يمجها الذوق. إن ما وجده مزاحم محمود في نمرود سنة 1989 ليس كنوز ملكات أشونزيربال الثاني ولا شلمنصر الثالث تغلاتفلاسر الثالث، بل كنز الأجداد المزعومين لدكتاتور العراق. من أراد أن ينجح في متحف العراق عليه ألا يغضب الرئيس.

إن مدير المتحف، جابر خليل التكريتي هو نسيب لصدام حسين وعضو بارز في حزب البعث. ولكن ليست هذه، حكماً، حال جميع علماء الآثار والمرممين والمؤرخين الذين يشرف عليهم. فشهرة وكفاءة عدد لا بأس به منهم، مثل دوني جورج الذي استقبلنا وحنة عبد الخالق، المديرة العامة للحفريات الأثرية أو ربيع القيسي المدير العام للإدارة العامة للعاديات والتراث، يعترف بهم جميع أفراد الجمعية العلمية. وقد عمل هؤلاء، منذ

حرب الخليج الأولى على نقل الكنوز الثمينة، مثل كنز نمرود أو كنوز القبور الملكية في أور.

وضعت هذه المجموعات الفريدة في أقبية المصرف المركزي العراقي. وفي المتحف، سحبت أكثر القطع الثمينة ـ الألواح المسمارية، التماثيل الصغيرة، المنحوتات الطينية أو العاجية، الأختام الأسطوانية ـ من صالات العرض وأودعت في المخازن. وأرسلت محتويات متاحف الأرياف دفعة واحدة. مثل متاحف الموصل والناصرية، إلى متحف بغداد، حيث شروط الأمان أوفر ضماناً. وأصبحت مستودعات المتحف الوطني العراقي مكاناً استراتيجياً أكثر أهمية من قاعات العرض، لأنه أضيف إلى مجموعاتها الخاصة مجموعات متاحف الريف، دون أن ننسى العاديات المكتشفة حديثاً أو المنتزعة من مخازن مختلف الورش الأثرية.

والأمر نفسه ينسحب على عدد مجهول من القطع الأثرية التي نوعيتها وأصلها ليستا مؤكدتين دائماً، لأن علم الآثار العراقي معطل، بسبب العقوبات الاقتصادية التي فرضت على البلاد منذ ما غزا صدام الكويت. ومنعت الأمم المتحدة استيراد المواد الكيميائية الضرورية لعمليات ترميم وحفظ العاديات، فلم يعد بالإمكان إنجاز العمليات بشكل صحيح. ولم يعد يتمكن الباحثون، للأسباب نفسها، من الوصول إلى المجلات العلمية.

وكان من نتيجة الشح تقليص ميزانية مصلحة الآثار بشكل مأساوي فبدأت منذئذٍ تسير ببطء[1]. وأصبحت إدارة المستودعات، في هذه الظروف، حيث تتراكم كل يوم قطع جديدة، في غاية الصعوبة، إن لم تكن مستحيلة، إلى درجة أن لا أحد يعرف بالضبط على ماذا تحتوي فعلاً.

وها هي مستودعات متحف بغداد، في 11 نيسان/ إبريل، مكتظة بعشرات وعشرات آلاف العاديات غير المحددة تماماً. هذا الوضع الاستثنائي إلى حدٍّ ما هو أحياناً وضع متاحف أخرى في العالم. ومثال ذلك أن إدارة المتحف المصري في القاهرة تجهل محتوى آلاف الصناديق التي وضعت في حلقات تحت الأرض على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين. وهي تحمل، عادة، رقم البيان وملصقة تحدد منشأ الأشياء الموجودة في الداخل واسم البعثة التي وجدتها، والعدد الكبير منها لم يجرِ فتحه. وذات صباح من سنة 1959 اتهم المصري زكريا غنيم بسرقة إناء يستعمل في الطقوس الدينية من هرم حوررس، وهو فرعون من السلالة الثالثة يعتقد أن وزيره ومهندسه هو إمحوتب. كان قد وجد هذا الإناء في سقارة قبل ذلك بخمس سنوات. يئس المسكين وانتهى به الأمر إلى أن ألقى بنفسه في نهر النيل. وتشاء

(1) جوان فرشخ، «العراق، عشر سنوات في علم الآثار تحت الحصار». مجلة أركيولوجيا، شباط/ فبراير 2002.

سخرية القدر أنه عشية ذلك اليوم يجد عالم المصريات، الفرنسي جان فيليب لوير، في نهاية «تنقيب» دقيق جرى في المستودعات، يجد آثار الجريمة التي كانت موجودة هناك[1].

حالات التقصير المشينة هذه لا يمكن تفاديها في أيام السلم، وتصل إلى معدلات خارقة في أيام الحروب. ففي سنة 1988 يعود عالم النقوش الفرنسي، كلود جاك، إلى پنوم پنه بعد غياب خمسة عشر عاماً. يتشكى مدير المتحف الوطني ـ الذي نهب عدة مرات وأهمل منذ سنة 1974 ـ منذ ثماني سنوات، بأنه لا يملك مخططات الموقع الأثري في أنغكور. ويظن أن المستندات نقلت إلى فرنسا. ولم يحتج كلودجاك، الذي أدار المتحف، لأكثر من ساعة، لكي يجدها في قعر خزانة في مكاتب الطابق الثاني. وفي كابول، بعد عدة سنوات، بعد عمليات نهب 1993 ـ 1995 ثم حقد طالبان الجنوني على الأيقونات، لم يعد أحد يعرف أين توجد مجموعات، نقلت مئات المرات منذ بدء الخصومات في سنة 1979. عدد كبير اختفى منها إلى الأبد وأشياء أخرى مثل كنز تيليا تيپه وجدت بعد تفتيش بطيء ثبّط همة پوارو.

وحدث أكثر من مرة، في هذه السنوات الأخيرة أن رغب

(1) جان فيليب لوير، سقارة، حياة. حوارات مع فيليب فلاندران، باريس، بايوت ـ ريفاج 1992.

أمناء متاحف عراقيون في أن يلقوا بأنفسهم في نهر دجلة عندما يجري الحديث عن وضع بيانات. إنهم يعرفون ماذا يوجد في صناديق الفولاذ التي تحتوي على العاديات التي نقلت من صالات العرض. لكن انقطاع التيار الكهربائي الذي تسبب عن القصف الأميركي منذ عشر سنوات، شلَّ مضخات الماء وأغرق المستودعات ودمّر أو أتلف محتويات العشرات من بينها.

وليست حال المتحف الوطني العراقي متألقة، غير أن الثروات المحفوظة هناك والتي لا تقدر بثمن، كانت هدفاً مميّزاً. وكان اللصوص الذين لا تمنعهم القوات الأميركية، يطلقون لأنفسهم العنان. كما يلاحظ، فيما بعد، المحامي العراقي، فيصل استرابادي، مستشار وزارة الخارجية التي برأسها كولان بويل، قائلاً:

> *عندما تحمون نفط وزارة النفط، ماذا تريدون أن يفكر الناس، لا يمكن أن تكون القوات الأميركية تجهل مكان المتحف، فليس لها سوى أن تتبع اللوحات التي تحدد الطريق. إنها بالإنكليزية: «وجهة مكان المتحف»[1].*

---

(1) نقلاً عن دانيد ريف «Blueprint for a mess» ذي نيويورك تايمز 2/ 11/ 2003.

الفصل الثالث

العارفون

لا يفوتهم المجيء. الحادي عشر من نيسان/إبريل 2003، الساعة التاسعة تقريباً، دوّت سلسلة انفجارات. بدأت أبواب المتحف تُحطَّم تحت أنظار المقدم إريك شوارتز ورجاله الذين لم يحركوا ساكناً. وإن حدث هذا الشيء في كل مكان، في بغداد كما في سائر العراق، فإنه يبقى مستهجناً إلى حدٍّ ما. كيف يسمح قائد كتيبة بأن يجري عمل لصوصية بهذه الخطورة أمام عينيه في المنطقة التي هو مسؤول عنها دون أن يتدخل، حتى ولو كان من تلقاء نفسه؟ هذا السؤال يبقى بلا جواب حتى ولو وجد له تفسير فيما بعد كما سنرى.

بانتظار ذلك، يتوافق نهب متحف بغداد في جميع صوره مع المعايير التي تتيح وصف حدث «بعمل لصوصية خطير».

إنها لعبة أدوار. تأتي الدفعة الأولى من اللصوص يقودهم «عارفون» خبراء. شوهد ذلك في مكان آخر، في متحف كابول

في 11 حزيران/ يونيو سنة 1993 عندما سرقت المجموعات القومية في أفغانستان على أثر معارك شرسة، بعد أن تم اختيارها من قبل اختصاصيين استعانوا بجداول وبنشرات علماء الآثار. يعرف هؤلاء الأشخاص الأمكنة تماماً وأهدافهم محددة، وليس المتحف سرًّا بالنسبة إليهم، فبعد أن يرغموا الحراس على فتح أبواب البناء بعد تهديدهم بالقتل، ينتزعون حواجز الحديد التي تسد مداخل قاعات العرض والمستودعات.

بعد أن يعبر اللصوص الممر حيث توجد التماثيل والمنحوتات المنقولة من حثرة يدخلون قاعة العاديات السومرية وهي قاعة فسيحة. لم يبق فيها سوى مئة من القطع الأثرية من بينها بعض التحف الثمينة والقطع القديمة التي يمتع ويهم الانحناء فوقها وخاصة في 11 نيسان/ أبريل المشؤوم عندما يكون الإنسان خبير آثار.

في إحدى الواجهات قناع صغير منحوت في الرخام الأبيض يقص الزجاج بعناية بواسطة ماسة، والقناع الصغير اليد هو إحدى التحف الأقدم والأشهر في العالم. اكتشفه علماء آثار ألمان سنة 1938 في وركا، أوروك القديمة، القناع هو قناع امرأة. يقدر أندره عمره بخمسة آلاف سنة ويصفه بهذه الكلمات.

وراء الجبهة التي تتراءى عليها عقائص الشعر بوضوح، ندرك

فكرة نشطة وخارقة. لكن الشفتين لا تحتاجان إلى أن تنفتحا لكي يسمع الكلام[1].

من يختبيء وراء هذا القناع الذي يدعى بسرور «سيدة أوروك»؟. فيجيب بارو، نسيب أندريه مالرو بهذه الكلمات.

إنسانة فانية بسيطة، كاهنة عظيمة، زوجة ملك، إلاهة، قناع أوروك جدير بكلٍّ من هذه الأشخاص. يمكن أن يكون هذا أو ذاك. إنه مزيج من جميعها (...). رأس وركا، في المتحف الخيالي للنحت العالمي، هو إحدى هذه التحف الأساسية التي تتحدى جميع التأويلات وتفرض نفسها. إنها إحدى قمم العبقرية الخلاقة، إلى هنا بلغ بنا المكان والزمان إلى ضفاف الفرات، إلى نهاية مرحلة ما قبل التاريخ. إرث مثير ولكنه ثقيل. كيف يستقبل رجال التاريخ هذا الإرث وماذا سيفعلون به[2].

إنها الأنثى الخالدة. يقابل بارو بين سيدة أوروك وسيدة إلشي (= Elché حقل بلح في إسبانيا وجد فيه تمثال نصفي لامرأة دُعيت «سيدة إلشي»).

(...) بعيدة ولكنها تشعر بأنها واثقة من نفسها، أي أنها واثقة من الانتصار.. في بلاد سومر، في وركا، وجه أكثر إيلاماً، ناعم، علب، مع تجعيدة على الوجنة تشير إلى

(1) أندريه بارو، سومر. ص 129.

(2) أندريه بارو، الفينيقيون، باريس، غاليمار د. عالم الأشكال 1975.

الإحباط الذي تسببه الحياة ولكن مع ذلك، وبالرغم من خيبة الأمل، هناك الأمل بالنصر. إنها في الحالتين صورة الوجود المتجسد في من كانت حواء جميع الحضارات، حواء «أم جميع الأحياء» (تكوين، 3، 20)[1].

هذه السيدة وقعت في حوزة «عارف» خبير مدرك أنه ربح الجائزة الكبرى، وحتى ولو كانت قطعة كهذه، محددة الهوية مفهرسة، معلناً عنها مئات المرات، غير قابلة للبيع، فلا يمنع أن تبقى رهينة، يمكن ذات يوم أن تقايض بفدية.

ولكن قرب المدخل تنتصب قطعة أخرى وحيدة في العالم، إنها عبارة عن إناء للطقوس الدينية منحوت في المرمر عليه نقوش جانبية. وجده أيضاً في أوروك سنة 1940 علماء آثار ألمان. قطره 36 سم وارتفاعه 1.05 م. وكان الفنان الذي نحته يعرف، ربما صانع القناع المسروق.

تقسم نقوش إناء أوروك، على مثال العلم أو مسلة النسور، إلى سجلات. الشخصية الأساسية للقصة المدونة عليه، الممثلة على السجل الأعلى بواسطة شعائرها، وهي عبارة عن رزمتين من القصب، هي على الأرجح إنانّا، ابنة الإله آن، الإلاهة الكبرى في أوروك. وعلى السجل الثاني، يمثل موكب من حملة النذور المثقلين بالأواني وطاقات الزهر والسلال الملأى بالفاكهة

---

(1) المرجع نفسه.

والخضار، يتقدمهم شخص جليل لا يظهر وجهه أمام كاهنة عظيمة تستقبلهم عند عتبة الهيكل. وعلى السجل الثالث يظهر كبشان. وأخيراً، على السجل الرابع، حيوانات تسرح في حقل شعير على ضفة نهر هو على الأرجح نهر دجلة.

مشاهد سلمية، مشاهد من حياة سومر في نهاية الألف الرابع، نقوش إناء أوروك هو شهادة وحيدة، مستند يقدم لنا معلومات ثمينة عن عادات وأخلاق ذاك الزمان.

وليس هذا كل شيء، إن ما يحكيه إناء أوروك ليس هو في الواقع سوى زواج إنانا، نجمة الصباح، الإلاهة الخصبة والمقاتلة. بدوموزي (تموز)، الراعي المقدس، الاحتفال العظيم الذي تجني منه بلاد سومر خصبها. إنها هناك أناشيد سومرية رائعة. ونتذكر أنه لدى عودة غلغامش إلى أوروك بعد انتصاره على العملاق غومبابا بمساعدة إنكيدو، كيف يرفض عروض إنانا بالزواج. ويذكرها بخياناتها الكثيرة وأخطرها في نظره هي تلك التي أوصلتها إلى خيانة زوجها دوموزي (تموز).

«دُوموزي حبيبُ صباكِ
أورثته نواحاً جنائزياً سنوياً»[1].

يبدو هذا المقطع من نشيد غلغامش، الذي وجد في الألف

(1) جان بوتيرو وصموئيل نوح كرامر، عندما صنعت الآلهة الإنسان - ميثولوجيا ما بين النهرين، باريس، غاليمار، 1989.

الرابع وربما قبل ذلك، رائجاً في الألف الثالث، بعد اختراع الكتابة، عندما روَّجه كتبة الأساطير والكهنة في سومر. وينتج، حينئذٍ، عدة روايات لحب إنانا لدوموزي (تموز) ذكرت في «انحدار إنانا إلى الجحيم»، إنها مأساة، قد تكون الأولى في تاريخ الأدب. تروي هذا الانحدار عدة أناشيد أكادية وشعر سومري من أربعمائة بيت شعر، اكتشفت لوحاته في أور ونيبور في بداية الثلاثينات من القرن الماضي.

ذات يوم، تترك إنانا حي إيانا في أوروك لتنحدر إلى «العالم السفلي» وتترك في الوقت نفسه أحياءها القائمة في ست مدن أخرى من سومر: بادتبيرا، زبولوم، آداب، نيبور، كيش وآغاده، وتصبح سبعاً إذا أضفنا إليها أوروك. وتتزود لسفرها «بسبع قدرات»: العمامة، تاج الفيحاء، ستارات القلوب، مقياس اللازورد، اللآلىء المصوغة، الإسوار الذهب، سواتر النهدين والوشاح الملكي.

وقبل أن تسافر أرسلت مساعدتها نينسوبور ذات «الأحاديث المقنعة» لتقرع الطبل أمام مجموعة الآلهة في نيبور عند إنليل، وفي أور عند نانّا وأخيراً في إريدو عند إنكي.

لا تترك إنانا الفتية.

تمكث ميتة في العالم السفلي[1].

---

(1) المرجع السابق.

عندما وصلت إنانا إلى قصر غانزر (الجحيم) استقبلها پيتو حارس الأبواب السبعة. فينذرها بأنها وصلت إلى «أرض اللارجوع». ولا يزال الوقت يسمح لها بالذهاب. ولكن بما أن الإلاهة ركبت رأسها، يذهب پيتو ليعلم إيريس - كيغال سيدة الجحيم والأخت الشقيقة لإنانًا.

عندئذٍ تلطم إيرين - كيغال، بقلق بالغ، فخليها غضباً

وتعض شفتيها غيظاً

«إسحب مزلاج الأبواب السبعة للعالم السفلي

وليُحْمَلْ جسدُها البائس اليَّ»[1].

يجتاز پيتو بإنانا أبواب الجحيم السبعة، وكلما عبرت باباً تفقد واحدة من قدراتها السبع. فتمثل، عندئذٍ، عارية، حائرة أمام أختها التي تحدجها «بنظرات قاتلة» وتسلمها لِـ «أنونا» القضاة السبعة في العالم السفلي الذين يحكمون عليها بالموت.

تحولت المرأة المهانة إلى جثة

وعلقت جثتها إلى وتد[2].

لكن إنكي، سيد العالم السفلي، إله مدينة إريدو، الذي

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع السابق.

سمع قرع طبل نينسوبور، يهرع إلى مساعدتها. فيسحر إيريس - كيغال فتصاب بمرض. فيحصل رسله بمقابل شفائها على جثمان إنانا التي يعيدونها إلى الحياة. لكن القضاة أنونا يطلبون تعويضاً عن تحريرها:

من انحدر إلى العالم السفلي
وعاد منه سالماً معافى؟[1].

واكب الشياطين إنانّا إلى العالم الأعلى. وأرادوا أن يحملوا، بالتناوب، نينسوبور وصيفتها وسارا مطربتها ولولاً قبطانها ولكنها رفضت أن تسلمهم إياهم، فذهبوا عندئذٍ إلى شجرة التفاح الكبيرة في بلاد كولابا السهلية التي كان يقيل تحتها دوموزي الراعي المقدس الذي تمثل الأناشيد وإناء أوروك تارة زوجاً لإنانّا وطوراً عشيقاً، خانها بعد أن رشقها «بنظرة قاتلة».

إنه هو. ائتني به.

انتزع الإناء من قاعدته، فتهشم، عندئذٍ قذف به لص أخرق في قعر كيس كبير.

مرّ اللصوص في القاعة الكبرى التي تحوي العاديات البالية، فلم يلتفتوا إلى قانون حمورابي. إنه نسخة لأن الأساسية في اللوفر. التماثيل الضخمة والمنحوتات العظيمة في نمرود

---

(1) المرجع السابق.

وخورساباد الموجودة في القاعة الأشورية في الطابق الأرضي هي خارج متناولهم.

ولكن ليس هذه سوى مقدمة. مُثّلت المسرحية في المستودعات التي حطم اللصوص أبوابها، إلى شمال ومؤخرة ممر أمانة المتحف هناك عشرات الألوف من القطع، معروفة ولكن سهلة الحمل والتخبئة، أو مجهولة سهل الاتجار بها.

فيها من جميع القياسات وجميع المصادر. هناك، في الدرجة الأولى القيثارة المشهورة التي لها رأس ثور والتي اكتشفها وولي في القبور الملكية في أور. هذه القطعة لم تسرق، إنها لا شك كبيرة (120 سم على 140 سم). لكن صفائح الذهب التي تزينها انتزعت. وهناك أيضاً رأس ضخم لثور مجنّح جيء به من قصر سرجون الثاني في خورساباد، سُرِق في بداية 1998 في حين كان عشرة مهربين يستعدون لإخراجه من العراق، فكادوا يتعرضون للإعدام. وهناك أيضاً أختام صغيرة مربعة الزوايا وبيضوية وعلى أشكال حيوانات من الصلصال الوردي أو من الرخام، وأختام أسطوانية رسمت أسود على أطرافها، وقطعان وثيران من يشب أو من حجارة كلسية، ولوحات عليها كتابات ما قبل مسمارية، وأشكال مخروطية ومسامير أساس من حجارة كريمة تمثل عصوراً مختلفة من الحضارة السومرية، وتماثيل صغيرة، محفورات بارزة من العصر البابلي وآلاف التحف المختلفة، ثم هناك عدد كبير جداً من الأشياء المنحوتة في العاج

من العصر الأشوري تعجب العارفين الذين لم يجدوا أي مشقة في العثور عليها.

بلغ فن العاج ذروته من القرن التاسع حتى القرن الثامن قبل عصرنا. وهو يؤكد على تألق المملكة الأشورية التي سادت بلاد ما بين النهرين وسوريا وزغروس وفلسطين وبابل وأخيراً مصر قبل أن تزول بشراسة مع تدمير نينوى سنة 612 ق.م. تنوع الأساليب وصناعة الصور والتماثيل والأشكال التي يتميز بها هذا الفن تجعل منه فناً عالمياً. تمتد خريطة محترفاتها على مجمل الشرق الأدنى الذي كانت تحكمه آشور.

تنتج مصانع زيويا في كردستان الإيرانية وأرسلان طاش على الفرات الأعلى والسامرة، العاصمة القديمة لإسرائيل، عاجاً محفوراً يستخدم في تزيين الأثاث وأدوات تبرج وآنية مزخرفة تؤكد على أشكال وأساليب ذات نماذج محلية. ونجد في خورساباد بالقرب من بلاط سرجون الثاني عدداً كبيراً من المحترفات الغريبة التي تنتج تحفاً متأثرة بمصر.

عُثر، لدى استكشاف نمرود الذي قام به ماكس مالوان وخلفاؤه من سنة 1949 إلى سنة 1966، في قعر بئر، على تحف آشورية بحتة: صورة آشونزيربال الثاني، عفاريت مجنحة، فتاة تشبه الموناليزا. لبوءة تصرع نوبيّاً، تزيين سروج تمثل الألهة المصريين (حورس، بيس، الإلاهة حاثور)، جميع التحف التي

أنتجتها المحترفات المختلفة، (بمساعدة اختصاصيين فينيقيين، سوريين، سوريين شماليين، آشوريين وحتى مصريين[1].

تعرضت هذه العاديات لعملية تقسيم: إذ كانت موناليزا موجودة في متحف بغداد مع عدة زخارف للسروج (جمع سرج = عدة حصان) أحد مثاليها «لبوءة تصرع نوبياً» قد نقل إلى متحف بريطانيا فيما الثاني بقي في بغداد. وصف أندريه بارو هذه القطع كالتالي.

> *إذا كانت صورة الأسد هي عبارة عن بعض الخطوط المختصرة، فإن الفنان كان، على عكس ذلك، مهتماً بشكل خاص بتعابير الوجه الإنساني الذي يبدو في ذروة النشوة بالرغم من اقتراب الموت[2].*

إنها نموذج عام. ولكن على مثال ذهب القيثارة أو منحوتات أوروك، الشجرة هي التي تغطي الغابة. الشيء الأساسي أن عشرات الألوف من القطع تترك المتحف بصناديق مليئة. وذلك يدوم عدة ساعات في حين أن إريك شوارتز يمثل دائماً دور المشاهد.

الثاني عشر من نيسان/ إبريل، الفصل الأخير، وتصل الغوغاء. يهجم الهمجيون واللصوص الصغار على المتحف كرتل

---

(1) أندريه بارو، آشور، باريس، غاليمار «عالم الأشكال»، 1969.

(2) المرجع نفسه.

من الجراد. إنهم جماعة الحصار (على العراق). جميع الأشياء مفتقرة في العراق منذ أكثر من عشر سنوات. كل شيء مقبول ومستحسن في هذه الحال: طاولات، كراسي، عدة، ورق، أقلام حبر، أسلاك كهربائية. . . إنه التنظيف في الفراغ، يأخذون تحفاً قديمة دون أن يعرفوا بالضبط لماذا تستخدم ولكن بإمكانها أن توفِّر الكثير، ثم، يحطمون التماثيل، كما حُطِّم تمثال الطاغية في ساحة الفردوس. وفي القاعة الآشورية، شلمناصر الثالث مقطوع الرأس. لقد حكم منذ ثمانية وعشرين قرناً. ولكن ما همّ! لم يكن بعد قد اختير ديمقراطياً.

في الثالث عشر من نيسان/ إبريل عاد الأمناء! السيدة أمين نبهال. المديرة المساعدة، تنهار وتطلق هذا الصراخ «170000 قطعة مسروقة». إنها تبالغ، ولكن في هذه الحال من الفوضى، انتشر هذا النبأ في العالم بأسره، فكان الاستنكار شاملاً. وجرى الحديث عن «جريمة ضد الإنسانية» ذكَّرت الناسَ بجنكيزخان. وفي السادس عشر من نيسان/ إبريل، تلقى إريك شوارتز أمراً بالتدخل. وفي الثامن عشر منه استقال مارتان سوليڤان المستشار الثقافي لجورج بوش الذي ما فتىء ينبهه منذ أكثر من عام قائلاً: «كان يجب ألا يحدث هذا الأمر. في حرب وقائية كهذه يجب التنبه لهذا النوع من الأشياء».

ولم يكن الرئيس الوحيد الذي لم يسمع.

الفصل الرابع

انشغال واشنطن بالأمور الداخلية

لم يقرر غزو العراق صباح العشرين من آذار/مارس سنة 2003 بمجرد ضربة حظ. لقد كان بالنسبة إلى الإدارة الأميركية ولحكومة جلالتها برئاسة طوني بلير فرضية عمل منذ نهاية حرب الكويت الأولى سنة 1991 عندما رفض نائب الرئيس ديك تشيني، الذي كان آنذاك وزير دفاع جورج بوش الأب، مهاجمة العراق لتحاشي الانزلاق إلى حرب طويلة الأمد.

أصبحت «حرية» العراق السياسة الرسمية للولايات المتحدة سنة 1998 عندما وقّع الرئيس كليتون «عملية تحرير العراق» التي تبناها الكونغرس بأكثرية جمهورية.

أتاح انتخاب جورج بوش الابن في بداية سنة 2001 لدونالد رامسفيلد وبول ولفوفيتز، المناصرين الكبيرين لغزو العراق، أن يتسلما زمام الأمور في وزارة الدفاع. وبعد عام، وبعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر والقضاء على نظام طالبان في

أفغانستان نجح الرجلان إياهما، بدعم من تشيني نائب الرئيس، بإقناع الرئيس بقلب نظام صدام حسين بقوة السلاح. أُعِدّ تنفيذ هذه السياسة في البنتاغون بإدارة رامسفيلد وولفوفيتز وفي وزارة الخارجية بقيادة الوزير كولن پاول. ولكن إذا كان الجميع متفقين على الغاية فليس هم كذلك بالنسبة إلى الوسائل، لأن پاول لم يكن مقتنعاً بنظرية وولفوفيتز الذي كان يظن أن الجنود الأميركيين سيستقبلون «كمحررين»، وأن الشعب العراقي سيلتف حول الحكومة الجديدة التي ستؤلفها واشنطن بعد سقوط الدكتاتور.

كُلِّف الجنرال إريك شينسكي، رئيس هيئة الأركان في الجيش الأميركي، أن يبدأ المعركة. وإذ اعتمد من جملة ما اعتمد، على معلومات المناورات الضخمة التي قادها الجنرال أنطوني زيني سنة 1999، طلب في 25 شباط/ فبراير سنة 2002، أمام الكونغرس عدة مئات الألوف من الجنود ليتحاشى «فراغاً أمنيًا هائلاً» بعد سقوط صدام حسين. لكن پول وولفوفيتز، الرقم الثاني في البنتاغون، استنكر هذا الطلب في اليوم الثاني أمام الكونغرس نفسه واعتبر أنه يكفي، بالنسبة إلى مخططاته، 250000 جندي للقيام بالمهمة دون زيادة جندي واحد. هذا هو مبدأ الحرب المحدودة. أيد جورج بوش هذا المبدأ. وأحيل شنسكي إلى التقاعد بعد ذلك بوقت قصير. وقد دعم رأيه عسكريون أميركيون كثيرون واختصاصيو حفظ الأمن في منظمة

الأمم المتحدة الذين أسفوا لنقص الأعداد المخصصة للشرطة العسكرية. يقول روبير پيروتو الشرطي في وزارة الخارجية:

«أنذر العسكريون مسبقاً بأنه ستحدث عمليات نهب، لقد حدث ذلك، على نطاق واسع، بعد الحروب التي حصلت في السنوات العشر الأخيرة. لقد ألحق نهب مدينة باناما ضرراً بالاقتصاد البانامي أكثر من الحرب نفسها. إنه واقع أكيد»[1].

ويستعاد الانتقاد، في شهر آذار/مارس سنة 2003، عندما حررت الوكالة المركزية للاستخبارات تقريراً يوافق على تحفظات كولن پاول جاء فيه: ثمة مجال واسع للتفكير بأن مرحلة الانتقال من النظام القديم إلى النظام الجديد ستكون صعبة ويجب توقع الكثير من الفوضى، وقد أرسلت الوكالة هذا التقرير إلى البيت الأبيض، عندئذٍ كلف كولن پاول توماس واريك المستشار الخاص في مكتب شؤون الخليج الفارسي الشمالي، للتحقق من صحة هذه الفرضية. ويتطلب ذلك استعراض إعادة بناء الدولة والمجتمع في العراق: مستقبل المؤسسات، الآفاق الاقتصادية. الصيغ السياسية، العدالة، النظام العام، الخ...

وإريك دبلوماسي محنك، يحيط نفسه بخبراء أميركيين مثل داڤيد ل. فيليبس وبنادي العلاقات الخارجية في نيويورك وبأعضاء أحزاب مختلفة من المعارضة الأميركية في المنفى مثل عدنان

(1) نقلاً عن داڤيد ريف. المرجع نفسه.

الباجه جي كبير أخصام صدام حسين، وقسمهم إلى أفرقاء عمل متخصصين. وفي ربيع 2002 قدمت لجنة واريك «مخطط لمستقبل العراق». عُرِض هذا التقرير السري على وكالة الاستخبارات المركزية، على البنتاغون، على نائب الرئيس تشيني وعلى الرئيس بوش، بقرار من پاول الذي يقترح مناقشته معهم، لأنه ليس متفائلاً بالنسبة إلى النتائج المباشرة للغزو. يؤكد مخطط واريك في فصل «مبادىء ديمقراطية» أن «المرحلة التي تتبع تغيير النظام مباشرة (. . .) تتيح الفرصة للمجرمين أن يقتلوا ويسرقوا وينهبوا!»[1]

صم دونالد رامسفيلد وپاول وولفوڤيتز آذانهما عن مختلف هذه النداءات وأدانا تقرير واريك الذي اتُّهِم محرروه بأعداء الديمقراطية في العراق.

واتخذ العراقيون المنفيون، الذي شاركوا في تقرير واريك، جانب الدفاع عنه، سأل عدنان الباجه جي المسؤولين الأمريكيين: «كيف يفكرون بفرض احترام القانون والمحافظة على النظام العام بعد الحرب». فأُجيب بأن لا يقلق «ستعود الأمور إلى نصابها سريعاً»[2].

وصرح، فيما بعد، مسعود برزاني، زعيم الحزب

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

الديمقراطي الكردستاني:

«لطالما قلت للأميركيين أنه إذا لم تكن الحكومة البديلة جاهزة منذ سقوط النظام، تفتقد السلطة ويلي ذلك الفوضى والنهب»[1].

وفي أول حزيران/يونيو 2002، أنذر فيصل استرابادي المحامي العراقي الأصل والعضو في لجنة واريك، أنذر، شخصياً، دوغلاس فايث الشخص الثالث في البنتاغون بقوله:

نحن نتوقع، في مخطط لمستقبل العراق، نهباً معمّماً، ليس من الضروري أن نكون من خرّيجي جامعة بوسطن لنفهم ذلك. أتذكرون ما حدث في لوس أنجلوس، عندما لم تتحرك الشرطة بسرعة على أثر الحكم على رودني كينغ، فمن الواضح أنه في غياب أي سلطة في بغداد ستشاهدون الفراغ والفوضى[2].

ولم يكن دوغلاس فايث أكثر إصغاء لهذا الصوت من رؤسائه.

ومع ذلك، لم يفتأ أسياد واشنطن يتلقون سيلاً من الرسائل على صورة تحذيرات تتزايد مع اقتراب الاستعداد للحرب. وهي صادرة عن مسؤولين من أعلى المراكز الثقافية والجامعية في

---

(1) نقلاً عن جويل برينلكي واريك سميث:
«US was warned of disorder, Iraqi say», The New York Times, in International Herald Tribune, 1/12/2003.

(2) نقلاً عن داڤيد ريف. المرجع نفسه.

الولايات المتحدة: المؤسسة المشرقية لجامعة شيكاغو على لسان ماك غير جبسون، جامعة بنسلفانيا بواسطة الناطق باسمها ريتشارد زيتلر، المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية بواسطة مديرها رودُلْف دورغان وانضم إليه باتي جِرْسْتِنْبليث من المعهد الأميركي للآثار وجون مالكولم روسل من معهد ماساتشوستس للفن في بوسطن ومن آخرين كثيرين مثل سورين مالكيان مدير الأبحاث في (CNRS)، وهو اختصاصي مشهور عالمياً ومحترم في سوق الفن.

وفي لندن تلقى طوني بلير رئيس الوزراء إنذاراً من مدير المتحف الوطني نيل ماك غريغور يؤيده نيكولا پوستغيت أستاذ الأشوريات في معهد الثالوث في جامعة كيمبريدج.

ذهب جميع هؤلاء العلماء إلى البنتاغون ووزارة الخارجية والبيت الأبيض والوايتهول يقولون إن النهب قد بدأ في المواقع الأثرية في العراق وتوشك الحرب أن تسبب كارثة لا سابقة لها. وفي شباط/ فبراير سنة 2002 صرح ماك غير محبطاً:

لقد ذهبنا قدر المستطاع مع البنتاغون، ذكرناهم بأنه ليس من تلال طبيعية في جنوب العراق وإذا رأيتم تلة تكون في أكثر الأحيان جثوة تحتها آثار مساكن قديمة[1].

---

(1) نقلاً عن جون نوبل ولفورد:

«Digs on hold/Looting is feared-War in Iraq Would halt archaeology in Mideast", The New York Times, 26/02/2003.

استُعرضت بنود اتفاقية لاهاي سنة 1954 لحماية الأملاك الثقافية في أيام الحرب مرات عديدة. هذه الاتفاقية تمنع المقاتلين من استخدام المواقع والأبنية التاريخية أهدافاً إلا إذا استخدمت مواقع عسكرية. لكن الولايات المتحدة أهملت التصديق على هذه المعاهدة بعد أن وقعتها. وجرت محادثات في كانون الثاني/ يناير سنة 2003 ضمت علماء الآثار والمسؤولين الثقافيين وممثلي وزارة الخارجية الأميركية التي قررت آنذاك أن تضيف إلى لجنة واريك «من أجل مستقبل العراق» جهازاً إضافياً مخصصاً لمسألة العاديات العراقية. وصرح غريغ سوليڤان الناطق باسم مكتب شؤون الشرق الأوسط في الخارجية الأميركية: «نريد أن نضع طريقة ما للتأكد من أن التحف الأثرية لن تبدّد ولن تباع بالمزاد»[1].

«طريقة ما». . . العبارة ألقاها بإهمال كولن پاول. ولكن ما العمل؟ هل يستدعي رجال القانون، تُستشار الأونيسكو؟ هل تعقد المتاحف ندوة ما للمناقشة لوضع «طريقة ما»؟. وبعبارة أخرى، جهاز، لجنة لهذا الغرض، جمعية علماء، في حين أن الحرب يمكن أن تبدأ بين لحظة وأخرى؛ وقال مسؤولو البنتاغون لقد تأخرنا. ومع ذلك، من المفيد أن نسعى لأن الجهاز موجود

---

(1) المرجع نفسه.

منذ... ستين سنة. والأمر يحتاج إلى أفضل من طريقة «ما».

لنسافر من جديد، إذاً، عبر الزمن.

السابع من كانون الأول/ ديسمبر سنة 1941، بيرل هاربر؛ تشن الولايات المتحدة الحرب على قوى المحور (اليابان، ألمانيا، إيطاليا وأتباعها). إنه منعطف الحرب العالمية الثانية. وتغاضى المتحاربون عما يحدث من دمار، وأوشك التراث العالمي أن يزول. فعزم جورج ستوت، المسؤول عن الصيانة في متحف فوغ آرت ميوزيوم في جامعة هارفرد، على إيجاد صليب أحمر للفن لإنقاذ التحف الفنية والأبنية والمواقع. فأقنع مديره پول ساكس بذلك. فأسس هذا الأخير لجنة دعم تضم تجمع علماء مشهورين، مثل شارل موراي، مؤسس متحف برنستون، فرنسيس هنري تايلور مدير متحف متروپوليتان في نيويورك، داڤيد فنلي من ناشيونال غاليري في واشنطن، ورئيس أساقفة نيويورك الذي أصبح فيما بعد الكاردينال سپلمان، والنائب العام في الولايات المتحدة هارلان ف. ستون. وفي الثامن من كانون الأول/ديسمبر سنة 1942، حين كان الجيش الأميركي ينزل على شاطىء أفريقيا الشمالية، اقترحت اللجنة على الرئيس روزفلت إنشاء «هيئة لحماية وإنقاذ الأبنية الفنية والتاريخية في أوروبا».

شكل روزفلت الهيئة في 20 آب/أغسطس سنة 1943 بعد

أربعين يوماً من نزول الجيش الأميركي في صقلية؛ وعين مديراً لها. أوين ج. روبرتس، رئيس مجلس القضاء الأعلى في الولايات المتحدة. ومضى زمن طويل على ذاك الاقتراح، ولكن پول ساكس، مدير متحف فوغ ذهب إلى الأكاديمية العسكرية في شارلوت ڤيل في فيرجينيا حيث اختار الضباط الذين يشكلون اللجنة. ومنذ السابع من حزيران/يونيو سنة 1943 عين ماسون هاموند العالم اللغوي، من جهته، في القيادة العامة للقوات الأميركية التي تستعد للإبحار من صقلية إلى شربا في الجزائر. ونظمت جداول إحصائية للأبنية التاريخية في أوروبا بلداً بلداً، وكذلك في تونس والشرق الأقصى واليابان والصين سبعمائة وست وثمانون خارطة وضعتها مؤسسة روكفلر بالتعاون مع متروبوليتان ميوزيوم، بتصرف الطيارين.

وفي شهر آذار/مارس سنة 1944، اندمجت لجنة روبرتس بالقسم المكلف حماية الأبنية التاريخية في مكتب الحرب البريطاني الذي كان المسؤول عنه هو السير ليونارد وولي مكتشف القبور الملكية في أور في بلاد ما بين النهرين.

وهكذا ولدت منظمة ثنائية تدعى الفنون الجميلة والوثائق (MFA & A) أسندت إدارتها إلى جوفري ويب، مؤرخ فن العمارة البريطاني يعاونه كالڤن هاتاواي أمين متحف كوپر هيويت في نيويورك. وفي السادس والعشرين من أيار/مايو سنة 1944 وقبل

أحد عشر يوماً من الإنزال في النورماندي، قابل ويب الجنرال إيزنهاور قائد الجيوش الحليفة في مركز قيادته العامة في شريڤنهام في إنكلترا، وتقرر أن يلتحق ممثلو منظمة الفنون الجميلة والوثائق بالقيادات العامة في الجيش البريطاني الثاني والجيش الكندي الأول الموضوعين تحت إمرة المارشال مونتغمري وبالقيادة العامة للجيشين الأميركيين الأول والثالث بقيادة الجنرال برادلي.

بعد تحرير باريس حرصت الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية على أن تعين ممثلين فرنسيين، مثل روز ڤالاند، أمينة متحف اللوفر، في الجهاز التقريري للمنظمة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1944 أنشأت منظمة الأمن الاجتماعي(OSS)، وهي التي تحولت اليوم إلى وكالة والاستخبارات المركزية (CIA)، من جهتها وحدة تحقيق في نهب الفنون (ALIU) ووضعتها تحت إشراف جيمس پلانت من متحف بوسطن. يتيح العمل المشترك بين أخصائيي الثقافة والجيش، في كثير من الحالات، استدراك ما لا يعوض.

تمثل منظمة الفنون الجميلة التي ظلت قائمة حتى سنة 1951، نموذجاً كان يمكن الاستيحاء منه عند إعداد الهجوم على العراق. أفضل مثل يبرز عمل منظمة الفنون الجميلة والوثائق والصعوبات التي عليها أن تتجاوزها هو، لا شك، قضية نفرتيتي الغامضة.

في نيسان/إبريل سنة 1945 وبأمر من هتلر وضع التمثال النصفي الملون لملكة مصر الذي اكتشفه عالم المصريات الألماني الشهير، لودفيك بورشادت، سنة 1912 في محترف النحات تحوتمس في تل العمارة، وضع، مع تحف فنية أخرى، في منجم الملح في غراسليبن، الذي حفرت أنفاقه في نهاية القرون الوسطى داخل تلة دوقية برونسفيك. واستولى عليه الجيش الأميركي التاسع في أوائل أيار/مايو. وفي الثاني عشر منه تنقل نفرتيتي، تحت حراسة النقيب لامونت مور مبعوث منظمة الفنون الجميلة والوثائق في الجيش التاسع، إلى «مركز تجميع الفنون» في ويسبادن حيث سلمت، بكل إجلال، إلى النقيب وُلترفارمر الذي تولّى إدارتها: وهذا الإجراء مطابق للقواعد التي أرساها مسؤولو منظمة الفنون الجميلة والوثائق.

ولكن في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1945 ورد خبر صادر عن القيادة العامة للجيش السابع المسؤول في ڤيسبادن يعلم ولتر فارمر بإعداد نقل «صفرين من التحف الفنية الألمانية من الذروة في الأهمية»[1] لترسل إلى الولايات المتحدة. اعتبر ولتر

(1) نقلاً عن كاي فريموث:

«Die Geraubte Kunst, Der dramatische Wettlauf une die Rettung der Kulturschätze nach dem Zweiten Weltkrieg, Georg Westerman Verlag. 1989.

فارمر خطف نفرتيتي عملية سلب بالقوة تحط من كرامة أميركا، فوقّع بياناً هو وثلاثون من زملائه يستنكرون فيه «محاولة النهب» التي تنظمها القيادة العليا للجيش السابع في الولايات المتحدة. وفي العاشر من شباط/ فبراير يفتح «نقطة التجميع» أمام الزوار. أما مصر التي تتهم لودفيك بورشارت بأنه أخرج نفرتيتي بطريقة غير شرعية فأرسلت بعثة تطالب باسترجاع التمثال، وقد استغلت دعم فرنسيس هنري تايلور، مدير متحف بلاد ما بين النهرين، الذي اقترح عرض تمثال نفرتيتي في نيويورك قبل إعادته إلى ضفاف النيل، لكن فارمر ظل مصرًا على اعتراضه. لكن منظمة الفنون الجميلة والوثائق رفعت الأمر إلى الرئيس ترومن الذي حكم لمصلحتها، وظل تمثال نفرتيتي النصفي في ألمانيا.

لم تكن منظمة الفنون الجميلة والوثائق تقف عند حد تأليف رئيس الولايات المتحدة لها، بل كانت، عندما تدعو الحاجة، تتجاوز القادة العسكريين لتتصل رأساً بالرئيس. وهذا يعني أن رؤساء ثلاثة (فرنكلين د. روزفلت، هاري ف. ترومان ودوايت إيزنهاور الذي استقبل المنظمة قبل عدة أيام من الإنزال) أعطوا أهمية كبيرة لمسؤوليتهم كحراس التراث وذاكرة العالم المتمدن. وهذا ما تناساه جورج بوش. لم يهتم أحد، باستثناء لجنة واريك التي فكرت، بنوع من سياق معين، بحماية العاديات والأبنية في بلاد ما بين النهرين.

لم يستقبل ممثلو الجمعية الأميركية للسياسة الثقافية (ACCP) في كانون الثاني/ يناير، سوى مسؤولي البنتاغون ووزارة الخارجية، هواة فنون. تأسست الجمعية سنة 2001 وهي لوبي يناضل بنشاط لإعادة النظر في قانون 1983 لتحقيق الملكية الثقافية الذي ينظم التبادل في موضوع المقتنيات الثقافية في الولايات المتحدة، وطلبت الجمعية أيضاً تخلي القضاء الفدرالي عن أحكام القانون الأميركي لسنة 1977 ضد ماك كلين، مستندة إلى القانون القومي للملكية المسروقة، الذي أتاح في شباط/ فبراير سنة 2002 إدانة فريدريك شولتز، الرئيس السابق للجمعية الوطنية لتجار الفنون البدائية الشرقية القديمة، لبيعه عاديات مستوردة بطريقة غير شرعية. وطلب أمين صندوقها وليم بيرلشتاين أيضاً، من الإدارة الأميركية أن تلطّف من التشريع العراقي في مادة تصدير الممتلكات الثقافية إلى الخارج، ذلك التشريع الذي يعتبره بيرلشتاين «حمائياً» غداة سقوط صدام حسين.

ليست القضية قضية تسهيل أو تصعيب عملية اقتناء أو تصدير التحف الأثرية العراقية لمصلحة التجار وهواة جمع العاديات، وهذا ما اشتكت منه باتي جِرْسْتِنْبليث، رئيسة معهد الآثار في أميركا لأنها تعتبر أن:

برنامج الجمعية هو تشجيع جمع العاديات بتلطيف تشريعات

البلدان الغنية بالآثار وإلغاء مجموعات الدولة لتسهيل التصدير[1].

وترى دومينيك كولون، أمينة عاديات الشرق الأوسط في المتحف البريطاني، أن التدابير التي تطالب بها الجمعية الأميركية للسياسة الثقافية هي «بالضبط نوع من الأشياء التي تشجع على النهب، وفي حال وافقت الحكومة الأميركية عليها، سيكون للتجار السوق التي يبحثون عنها المجال أمامهم حرًا. آخر ما نتمناه هو تبرير للنهب»[2].

إن إيجاد مكتب لإعادة البناء وللمساعدة الإنسانية (ORHA)[3] في 20 كانون الثاني/ يناير 2003، بمسعى من دوغلاس فايث، الرجل الثالث في البنتاغون، يمثل، في اللحظة الأخيرة، فرصة إنقاذ المنقولات، ويريد الجنرال، جاي غارنر، الذي عين رئيساً للمكتب، أن يحصل على تعاون توماس واريك وأصدقائه في مخطط من أجل مستقبل العراق. ولكن لسوء الحظ، فإن واريك وفيصل إسترابادي وجميع الذين ساهموا في المخطط هم على قائمة بول وولفوفيتز السوداء، فهو لا يسامحهم

---

(1) نقلاً عن إيمّانويل دو رو: «نهب المتاحف يثير جدلاً حادًا». جريدة لوموند 26/ 4/ 2003.

(2) دونالد ماك لود، «قد يهدد اللوبي الأميركي التراث العراقي». مجلة ذي غارديان، 10/ 4/ 2003.

(3) Office of the Reconstruction and Humani tarian Assistance.

لأنهم انتقدوا سياسته في الربيع المنصرم. لذا لم يستطع غارنر، الذي أمامه ثمانية أسابيع فقط ليعمل، أن يستفيد لا من عمل واريك ولا من معاونيه، فوجد نفسه عاجزاً عن تدارك النهب الذي كان يتوقعه هو أيضاً. تُرِك أعزلاً، ليس إلى جانبه سوى قبضة من المعاونين لا مستعرب بينهم، والبنتاغون لا يثق بهؤلاء الأشخاص «لأنهم لا يؤمنون بأن العراق يمكن أن يصبح ديمقراطياً»[1].

وجاي غارنر، الذي يتوقع هو أيضاً حدوث عمليات نهب، ليس لديه من وسائل للدفاع عن سياسته. وهكذا، ففي أوائل نيسان/ إبريل، بينما كان الزحف الأميركي يقترب من بغداد، لم تتخذ أي احتياطات للمحافظة على ممتلكات العراقيين الذي يمثل تراثهم القديم، قسماً مهماً من ذاكرة الإنسانية لا يقل شأناً عن التراث الأوروبي. وفي الخامس والعشرين من آذار/ مارس يصرّح منيربشناقي، مدير مساعد في الأونيسكو، بشيء من الخشية:

لقد سلمناهم (الأميركيين) جدولاً بمواقعنا الأثرية، مع مستندات خرائطية، أمل أن ينتفعوا بها[2].

وفي السادس والعشرين من آذار/ مارس، يسلم الجنرال

---

(1) إيمانويل دو رو. المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

غارنر، المسؤول عن (ORHA) قائمة بست عشرة مؤسسة «جديرة بالصيانة، حالما يصبح ذلك ممكناً، لتحاشي المزيد من الخراب والتدمير أو سرقة الممتلكات والوثائق».

وعلى رأس القائمة المصرف المركزي العراقي ويليه المتحف الوطني العراقي. ويطلب الجنرال غارنر أن يوضع حد لنهب الآثار وأن تضبط المسروقات. فوجَد أذناً صاغية ولكن بعد فوات الأوان؛ لقد بدأت الحرب الخاطفة منذ ثمانية أيام.

القسم الثالث

عملية استرداد

الفصل الأول

حجرة البدائع والطرائف

خبر مثير! أعيد إناء أوروك. في 12 حزيران/ يونيو، أي بعد مرور شهرين من حادث النهب، حضر ثلاثة فتيان عراقيين إلى المتحف، في حين كان بياترو كوردوني، المستشار الطلياني للتحالف لدى سلطة الاحتلال، يقوم بزيارة لماتيو بوغدانس - الصدفة تجيد تدبير الأمور - يخرج المستشار حالاً إلى الفناء ويتجه لملاقاتهم، ويكتشف، في مؤخرة سيارة ملفوفة لفًّا أنيقاً بغطاء، الإناء الشهير، فيبادر آل علي بابا إلى أن يعيدوه إلى بياترو كوردوني الذي يشكرهم بحرارة. وبعد ذلك، يستقل الثلاثة السيارة ويتوارون في ازدحام بغداد. وكان ذلك نصراً عظيماً للطلياني.

قصة ممتعة[1]، ولكن ما الذي حدث فعلاً؟ وكما في مثل

(1) روى الخبر، في اليوم عينه، الناطق باسم التحالف وأذيع الخبر، في النهار نفسه عبر وكالات «رويتر» و«آسوشياتد برس» و«وكالة الصحافة الفرنسية».

«الابن الشاطر» لم يطرح أي سؤال على الذين يصفهم كوردوني بتلطف «بمواطنين عراقيين عرفوا قيمة تراثهم»، عافاكم الله، شكراً وإلى اللقاء، ولا تفسيرات أخرى.

طلبنا إلى الدكتور دونّي جورج أن يأمر لنا بتصوير إناء أوروك فسمح لنا. وصباح اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة، استقبلتنا نوادا المتولي، سيدة ذات مزاج عصبي، أو على الأقل مقطّبة ما بين الحاجبين، وهي تشغل رسميًا وظيفة مديرة المتحف الوطني العراقي. السيدة متولي في الخمسين من العمر ويبدو أن معاونيها يخافونها. تضع نظارات سميكة ومنديلاً أسمر فاتحاً على رأسها على الطريقة السُّنية ما يحول دون رؤية شيء من وجهها، لقد عاشت نهب المجموعات الأثرية التي تتولى حراستها، كاغتصاب تعانيه هي شخصياً، وبتحفظ شديد ترضى بأن تصحبنا إلى مكتب المحفوظات حيث جماعة من الضباط الأميركيين يثيرون نقاشاً حاداً، تستدعي الأمين المساعد، مهدي علي، وهو فتى بشوش الوجه، شيعي المذهب كما يدل اسمه، والمعاونة جنان أيضاً، تتلفع، بالرغم من الحر الشديد، برداء أسود وبمنديل أبيض، فأوعزت إليهما أن يرافقانا. وفتح بعد قليل باب ما يسمى، بحق، «حجرة البدائع والطرائف»، في المتحف الوطني العراقي. دخلنا غرفة مستطيلة الشكل، نوافذها الضيقة المفتوحة عند السقف لا تدخل سوى نور ضئيل شبيه بنور حوض الأسماك،

وسط القاعة، حيث الحرارة تقرب من حرارة الفرن، مشغول بطاولة ضخمة وعلى جوانبها الأربعة منضدة عمل. . زينة القاعة صارمة، ولم نكد نكتشفها حتى تقفز أمام أعيننا ازدحام غريب. هناك مئات الأشياء، من جميع الأشكال وجميع القياسات ـ تماثيل صغيرة، لوحات، أختام، كِسَر، علب، صفائح كرتون، صناديق مكتظة حتى التفسُّخ، فوضى هائلة يجب أن نألفها قبل أن ندرسها. لم نميز للوهلة الأولى إلا الأشكال الأكثر بروزاً: نورثو من البرونز، مظهر موغل في القدم، أصيب بأضرار فادحة، تكاد ألوانه وخطوطه تضمحلّ، فيقول مهدي علي مؤكداً: إنه سومري»، «مستعاد».

مستعاد، كلمة سحرية، مفتاح غرفة البدائع والطرائف حيث تجمع القطع التي أعيدت إلى المتحف منذ شهرين، ثم يبدو إناء طقوسي كبير تعتلي حافته تماثيل صغيرة ـ ناس، جِن، حيوانات ـ ثم تصميم مجسم من تراب مشوي لمحراب صغير.

ويشرح لنا علي قائلاً: «قبل تاريخيات، مستعادة». وعلى الأرض صندوق ضخم، من فولاذ مطلي بطلاء كريه، أخضر اللون. يرفع مهدي غطاءه، في داخله يرقد إناء أوروك، الذخيرة الجليلة تستريح في كفن من نسيج موصلي أصفر. السجل الأعلى حيث يمر حملة القرابين قد تخدش، إنها خدوش قديمة وجميعها يمكن أن ترمّم لأن القطع أيضاً، أعيدت، وتستطيع إنانّا أن تتابع

سفرها في العالم الأرضي. ولكن حول هذا الصندوق، حيث ينتظر هذا العائد أن يبعثه المرممون من الموت، أعداد لا تحصى من الأشياء الصغيرة تملأ الطاولة والمناضد، تجد هناك كل شيء، ابتداءً من حلي ناجية من كنز الملكة پو - آبي وصولاً إلى أشياء من سقط المتاع، تمثال نصفي لنفرتيتي - صنع في القاهرة - «خان الخليلي - بازار، عشر ليرات فقط يا صديقي!» -، نسخ من لوحات مسمارية، أشياء مزيَّفة، تذكارات، أدوات عبادة قديمة، وثم، في وَسَط هذه الأشياء القديمة المبعثرة هنا وهناك، شكل مدفن للأخوين لوازو الجليلين موضوعين بشكل مهمل؛ هناك كمية من زينة السروج، من العاج المطعم بالذهب. من أين تأتي؟ إنها، استناداً إلى ما يقول أمين المحفوظات مهدي علي، الاختصاصي بالفن الإسلامي، تشكل جزءاً من هذه العاجيات الشهيرة التي اكتشفها في نمرود، في قصر أشونزيربال الثاني: ماكس مالوان وتلاميذه بين 1949 و 1966.

تشهد هذه الكمية المصنوعة بشكل رائع، نظراً لموضوعاتها المستوحاة من الحياة المصرية، على ذاك الزمن الذي كانت فيه آشور من القوة بحيث ترغم مصر على الخضوع لها، ومع مصر جميع ممالك الشرق الأدنى. نرى، مثلاً، الإله حورس برأس صقر، الرمز الخالد للسلطة الفرعونية، له جسم أبي الهول هرماشي، يحمي بقائمة رخصة المحارب الأشوري حضرنا، في

هذا الغار، أي حجرة البدائع والطرائف، ولادة أسلوب حقيقي عالمي، حقيقي إلى درجة أن السرقة هي عودة خالدة... «قَدَر» الفن؟

صحيح أو خطأ؟ «حقيقي ومستعاد»، يجيب مهدي علي أمام المعاونة المقنعة، الغارقة في صمت تقي. عظيم، بأي ظروف عاد؟ لسأل بوارو لو كان حاضراً. في آخر نيسان/ إبريل أو في نهاية أيار/ مايو، فهو لا يعرف تماماً. إنه ربما يجهل أيضاً، ما هي الهوية الحقيقية لآل علي بابا؟ هؤلاء الذين أعادوا عاجيات نمرود؟ ومع ذلك يوجد على المنضدة ذاتها ورقة مسطرة تسطيراً مربّعاً تشبه ورقة دفتر مدرسي، كتب عليها: عبد الجليل خليل وحبيب سلمان محمد يطالبان بمكافأة.

من هم هؤلاء الناس؟ هل هم من آل علي بابا أيضاً؟ أجاب مهدي علي، القدري، لمعرفة الجواب، يجب طرح السؤال على العقيد ماتيو بوغدانس، إنه هو من يهتم بآل علي بابا ومكافآتهم.

ولكن عندما طلبنا أن نراه، قيل لنا إنه مشغول جدًّا الآن. إنه، في الواقع، الرجل المنسق لسياسة إعادة الأشياء المسروقة. إنه صاحب عملية إعادة إناء أوروك، رئيس المحققين الأميركيين الذين يعملون هنا، من هو هذا الضابط؟ نعرف اليوم شيئين أو ثلاثة بخصوصه.

الفصل الثاني

العقيد والمستشار

عندما وصل العقيد ماتيو بوغدانس إلى بغداد في 20 نيسان/إبريل سنة 2003، كانت قد بدأت منذ أكثر من أسبوع صور نهب العراق والمتحف تثير جدلاً حامياً. وكان قد وصل منذ الأيام الأولى من نيسان/إبريل، وفد من تسعة علماء آثار بريطانيين بينهم مدام دومينيك كولون، الأمينة المساعدة لقسم الشرق الأدنى القديم في المتحف البريطاني. وقد اتهمت هذه السيدة حكومة الولايات المتحدة «بالرضوخ لضغط هواة جمع التحف الفنية وسمحت بإعادة الكنوز المسروقة في العراق في السوق الشرعية»[1]. وفي الرابع عشر من نيسان/إبريل صرح موظف كبير في البنتاغون، دون أن يذكر اسمه، بأنه لم تتخذ أية احتياطات لمنع النهب. وفي السابع عشر منه، صرح كونستانس لُونِتَال من جامعة برنستون بأنه: «يجب أن تلام قوى التحالف على تدمير

---

(1) دونالد ماك ليد، المرجع نفسه.

ونقل الكنوز الثقافية في العراق»[1].

وبلغت النقمة ذروتها عندما شبَّه دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع، نهب متحف بغداد بحادث لا مفر منه مثل هياج شعبي يحدث في مباراة كرة القدم.

لقد طفح الكيل، ففي حين كان مارتن سوليڤان، المستشار الثقافي لجورج بوش يقدم استقالته، وكان جاك شيراك يتحدث في باريس عن «جريمة ضد الإنسانية»، أصيب جورج بوش، أولاً، بالارتباك وأجاب بأن نهب المتحف الوطني العراقي هو «حدث مخيف (...) لا يفسره سوى انتقام أناس تعرضت عائلاتهم للهوان».

اعترى البيت الأبيض انزعاج. وغشت غمامةُ اللوحةِ البريئة لتحرير العراق. لأن المصير المأساوي لمتحف بغداد أظهر العراق في غمار الفوضى. وإذا كان ممكناً التعويض عن سيارة أو غسالة فالأمر يختلف بالنسبة إلى ختم أسطواني أو حواء أوروك أوموناليزا نمرود. إن صور المتحف المدمر أفهم العالم أن ما يجري في بغداد ليس مجرد هياج شعبي لمناصرين، بل مأساة لا يمكن إحصاء عواقبها.

---

(1) كونستانس لونتال:

The coalition is responsible for Iraq's treasures», International. Herald Tribune 18/4/2003.

يجب إنقاذ ماء الوجه، للحال. أعطيت الأوامر أخيراً ليتحرك الجيش.

وفي مطار بغداد وضع حد لعربدة جنود فوج المشاة الثالث. ففي حين كانت الشرطة العسكرية تحرس في المدينة، أعطيت الأوامر في السادس عشر من نيسان/إبريل، لجنود المقدم إريك شوارتز بتطويق المتحف، وليس أمامهم سوى خمس وأربعين دقيقة!

لقد سبق السيف العذل، إذاً ما العمل لتصويب الرماية؟

وفي السابع عشر من نيسان/إبريل بالذات، أعلن روبيرت موللر مدير مكتب التحقيقات الفدرالي أن أفراداً من الشرطة الأميركية سيذهبون إلى العراق. وصرّح قائلاً:

«نعترف بأهمية هذه الكنوز بالنسبة إلى الشعب العراقي وإلى العالم أجمع (...) وقد اتخذنا قراراً حاسماً لنقوم بما نستطيعه لإعادتها إلى الشعب العراقي»(1).

ها إن سياسة قد رسمت. لم يصدر عن بوش ولا عن رامسفيلد أي انتقاد لموقف جيوشهم أثناء النهب، ولم يتحدث موللر إلا عن عمل الضروري لإعادة الكنوز المفقودة. وبعبارات

(1) نقلاً عن أوليفر بوركمان:
Bush's cultural aids quit over sack of Baghdad's treasures», The Gardier 18/04/2003.

أخرى، إن نهب العراق هو قضية داخلية بحتة في هذا البلد الذي «تعرضت عائلاته للإذلال». . .

وأعلن مدير مكتب التحقيقات الفدرالي آنذاك عن إرسال عناصر شرطة إلى العراق «للمساعدة». ونتساءل مساعدة من، لأن الشرطة العراقية لم تعد موجودة منذ سقوط بغداد في الثامن من نيسان/إبريل. وعلى أي حال، تتركُ بعثةٌ الولايات المتحدة في التاسع عشر منه؛ وعلى رأسها ماتيو بوغدانس.

لم يكن ماتيو بوغدانس لا أمين متحف ولا مؤرّخاً للفن كما كان بالأمس أعضاء لجنة الفنون الجميلة والوثائق، بل كان وكيلاً مساعداً للدولة في نيويورك، ما يعني أنه يتمتع بتفويض القسم الذي يديره النائب العام جون أشكروفت، وزير العدل الأميركي. وبوغدانس هو عقيد في احتياطي المارينز ويتمتع بثقة دونالد رامسفيلد ومساعده پول وولفوفيتز مهندس الحرب، والرجل الذي، لأكثر من عام، أصم أذنيه عن جميع التحذيرات. يمثل بوغدانس، الإطار النموذجي للأمة الأميركية اليوم، حكومة الولايات المتحدة[1].

في 20 نيسان/إبريل وصل بوغدانس إلى بغداد على رأس

(1) «Update by Colonel Matthew Bogdanos on the situation at the Iraq Museum».49e Rencontre assyriologique international, British Museum, 11/7/2003.

مفرزة من ثلاثة عشر شرطياً من هيئة تشكلت قبل 11 أيلول/ سبتمبر سنة 2001 بقليل، وضمت 12 وكالة حكومية مختلفة. وتألف الفريق من ثلاثة ضباط يمثلون الجيش البري وسلاح الجو والمارينز، ومن عشرة آخرين من شرطة الجمارك ودائرة الهجرة الأميركية[1].

وضع المتحف تحت حراسة المقدم شوارتز. إن السلبية العجيبة لهذا الضابط حيرت أعضاء منظمة الفنون الجميلة والوثائق، وليس فريق بوغدانس. إذ لم يكن في نية أحد أن يصل إلى اتهام الجيش الأميركي في مسألة النهب وإلى البحث عن المسؤوليات. لم يكن هذا هو الهدف. إن مهمة بوغدانس، كما شرحها في 11 تموز/ يوليو لأمناء المتحف البريطاني، لا تعنى «لا بالمشاكل السياسية ولا بالمسائل الشخصية، إنما فقط بوضع جدول بمسروقات المتحف العراقي واستعادتها»[2].

منطق حتمي: إن ممثل الحكومة الأميركية مكلف «بإلقاء الضوء» على عمليات النهب وستقتصر صلاحيته فقط على متحف بغداد دون سواه ولا تعنيه المؤسسات الثقافية ومتاحف الأرياف

(1) «US Department of Defense: Briefing From the Team Investigating Antiquity Loss in Iraq. Presenter: Marine Col. Matthew Bogdanos», 16/5/2003.

(2) «Update by Colonel Matthew Bogdanos on the situation at the Iraq Museum», op.cit.

والمواقع الأثرية، لأن من مهمته استعادة المسروقات. ولكن هل سُمِع عن قاضٍ أميركي يحقق في جريمة أو في جنحة محكوم بعدم التطرق إلى دواعيها السياسية أو إلى المسائل الشخصية؟ إنه انتهاك فاضح لدستور الولايات المتحدة، وبما أن المسألة هي مسألة وضع جدول، لماذا لم يعين خبير، عالم بالآشوريات، أمين متحف مثل ماك غير جبسون من جامعة شيكاغو؟. لكن بوغدانس ليس ولتر فارمر ـ ولا بوش وليس روزفلت.

اتصل ماتيو بوغدانس، لدى قدومه إلى بغداد، ببياترو كوردوني المستشار الثقافي للتحالف في بغداد. (يمارس هذا الأخير وظيفة مستشار مكلف بالمسائل الثقافية لدى پول بريمر. الحاكم المدني الأميركي في العراق المعين من قبل جورج بوش الإبن). كوردوني إيطالي الجنسية، عُيِّن للقيام بمهمته بالاتفاق مع حكومة سيلفيو برلسكوني التي تدعم سياسة جورج بوش الإبن في العراق. إنه مستشرق وعلى علاقة وثيقة بالعالم العربي. لا يجهل لا غناه ولا فساده. وهو عارف أيضاً بتعقيدات تراث الشرق الأدنى. ويقيم، في بغداد، علاقات ممتازة مع رجال الأعمال ومع الباحثين سواء بسواء. إنه رجل سياسي ومعه سيتعاون بوغدانس المفصول إلى المهات البوليسية. ولطالما كافح تجار المخدرات النيويوركيين، لكن خبرته في مسائل العاديات هزيلة جدًّا. ولكي يمَوِّه بوغدانس هذا النقص الأكيد عاد إلى التشبث

بأصوله اليونانية وتذكر دروسه الأميركية في جامعة كولومبيا قبل انخراطه في سلك البحرية ليبدأ فيما بعد حياة قضائية.

هذا هو الثنائي الذي جُهِّز هناك.

يتخذ ماتيو بوغدانُس مقراً له في المتحف في 22 نيسان/ إبريل. وهو الذي يصدر الأوامر والعقيد ذو جسم رهيف ونظر ثاقب، يتمتع بسلطة طبيعية، عجول، حازم بطبعه، رجل عملي ويتحرك بسرعة أيضاً. له الأولوية في مراقبة الإعلام. من أجل ذلك، يجمع الأمناء ويقرر وضع الميزانية الأولى. وعمله أن يرد إلى نِسب معقولة العدد الاعتباطي لمسروقات متحف بغداد وهو 170000 كما أذاعته في 13 نيسان/إبريل السيدة أمينة نبهال. ونشرته الصحف في العالم قاطبة. وبغدانس يعرف أن أمينة نبهال عينت في وظيفة أخرى ولم تعد تشكل عضواً في مجموعة موظفي المتحف منذ أكثر من سنة، فكيف استطاعت، بدقائق قليلة أن تعد 170000 حاجة مسروقة؟. إن ذلك لمن رابع المستحيلات. يوافق دوني جورج على ذلك ويناقش الرقم منذ 29 نيسان/إبريل أمام الصحفيين، وقد أنجز أثناء ذلك أول تعداد للأغراض الناقصة في صالات العرض. وفي 30 نيسان/إبريل صرح العقيد بوغدانس لجريدة نيويورك تايمز بأن أمناء المتحف سلموه قائمة بـ 29 تحفة فنية «اختفت نهائياً» وجد ثلاثة منها، منذ ذلك الوقت.

«خمس وعشرون قطعة شيء يختلف عن 170000

قطعة»[1]. كان هذا ما استنتجه العقيد الذي حقق بذلك نجاحه الأول وهيمن على الإعلام. لأن النيويورك تايمز أعادت نشر ذلك وتبعها الإعلام. وهكذا ولدت قائمة بوغدانس الحاسمة مثل لائحة مدام نبهال التي عند قراءتها علينا أن نصدق أنه في ثلاثة أيام من النهب المكثف سرقت 29 قطعة وليس 170000 شوهد اللصوص يخرجون الصناديق الكثيرة ولكنها لا تحوي سوى 29 قطعة ليس أكثر. والاتجاه يميل نحو التخصيص لأنه استعيد منها أربع قطع. لعبة مراوغة ممتعة.

وليست تلك سوى بداية. وخلال شهر أيار/مايو توصل بوغدانس إلى إقناع الأمناء العراقيين أن يدلوه على مكان المستودعات السرِّية حيث يخبأ قسم من مجموعات المتحف. وقد أقسم هؤلاء بالقرآن بأنهم سيحتفظون بالسر حتى تحكم البلاد حكومة شرعية، واستطاع بوغدانس أن يقنعهم. فيُصحبونه عندئذٍ إلى ملجأ ضد الطيران في غرب بغداد حيث تخبأ كمية من المخطوطات من العصر الإسلامي و 179 علبة تحوي 8366 تحفة قديمة[2]. تضاف إلى قائمة الأشياء المسروقة قائمة الأشياء

(1) Alan Riding, «Iraq's looted art: The list shortens», New York Times, 2/05/2003.

المرجع ذاته.

(2) «Update by Colonel Matthew Bagdanos on the situation at the Iraq Museum».

المستعادة التي ازدادت، في نهاية أيار/مايو، بشكل مثير مع نهاية أعمال الاستخراج من الطبقات الأرضية للمصرف المركزي، شارع الرشيد. حيث وُجد في بداية حزيران/يونيو، الكنز الذي اكتشفه ما بين 1988 و 1989 في نمرود العراقي مزاحم محمود، ومجموعة الحلى التي اكتشفها السير ووكي في القبور الملكية في أور والمجموعة الخاصة للسلالة الهاشمية التي حكمت العراق من سنة 1918 إلى سنة 1958. وُجدت كلها مطمورة بالوحل ولكن بحالة سليمة.

كان كل شيء سيسير على أفضل وجه لو لم تصل إلى بغداد، في نهاية شهر أيار/مايو، لجنة يصطحبها منير بوشناقي، مساعد المدير العام للأونيسكو المكلف بالشؤون الثقافية. ويرفقة بوشناقي خبراء مثل نيل ماك غريغور مدير المتحف البريطاني وكين ماتسوموتو مدير البعثة الأثرية اليابانية في العراق وروبرتو بارابنّي مدير المركز العراقي الإيطالي لحفظ الأبنية وجون راسل عميد كلية الفنون في ماساشوشتس. والنتائج التي حصلوا عليها مختلفة جداً عن نتائج العقيد بوغدانس.

استناداً إلى ما تقوله لجنة الأونيسكو، قد يكون ألفان إلى ثلاثة آلاف قطعة اختفت من متحف بغداد، ما عدا مليونين مخطوطة تطايرت دخانا عند حرق المكتبة الوطنية.

إن العراق، في نظر بوشناقي، قد أصيب «بكارثة ثقافية

حقيقية». يجب البدء من الصفر لإعادة بناء المؤسسات. وأطلق إدانة ولا أوضح، مضيفاً أن القائمة التي تحتوي على 25 قطعة مفقودة التي وضعها بوغدانس هي «تشويه للحقيقة»[1] لأنها لا تذكر إلا التحف المسروقة من صالات العرض ولا تأتي على ذكر ما سرق من المستودعات. وطالب بجدول جدير بهذا الاسم يحدد العدد الصحيح للأشياء المفقودة. وبعبارة أخرى، ليس هناك قائمة واحدة بل اثنتان، لا شك أن الأمناء العراقيين خصّوا الجزائري بوشناقي بحديث غير الذي نقلوه للعقيد بوغدانُس. ولا شك أن جابر خليل التكريتي مدير القسم العراقي للعاديات، قد استأنس بمجيء بعثة الأونيسكو فصرّح في مؤتمر عقد في عُمان بأن «ألوف القطع» سرقت من العراق[2].

لكن بوغدانُس يتحفظ على أن يتورط في جدال يعرف أنه خاسر مسبقاً. حتى ولو كان النظام الذي اعتمده قد وُجّهت التُهم إليه. إن استعادة إناء أوروك التي جاءت في الوقت المناسب واستعادة كنز نمرود أعادتا إليه شيئاً من القوة. اختفت في الثاني عشر من حزيران/يونيو، 3000 قطعة أثرية من متحف بغداد وهو

---

(1) Alan Riding, «Unesco lengthens list of looted art in Iraq», International Herald Tribune, 24-25/5/2003.

(1) وكالة الصحافة الفرنسية: «تحفة أساسية تعود إلى متحف بغداد. 12/ 6/ 2003 الساعة 15.49.

عدد لم ينقضه كوردوني الذي صرح بأن معرضاً سيقام في الثالث من تموز/يوليو التالي في متحف بغداد يتيح للصحافة والدبلوماسيين أن يشاهدوا إناء أوروك وكنز ملكات نمرود.

إنهما رمزان مهمان. يصرح بوغدانُس في 16 أيار/مايو، يصرح بوغدانُس بأن إناء أوروك هود، «على الأرجح القطعة الأهم في متحف بغداد[1]»، أما كنز نمرود، فمصدره كمصدر العاج من قصر الملك آشورنزيبال الثاني.

لكن ما الفائدة، بالضبط، من هذا المعرض؟ الأقل من عادي الذي تنسب فكرته إلى بياترو كوردوني؟ هذا هو السؤال الذي كان يمكن أن يطرحه بوارو والذي طرحناه نحن بدورنا على أنفسنا ونحن نغادر حجرة البدائع والطرائف تحت النظر الشزر للسيدة المتولي التي وجدت أننا أمضينا وقتاً طويلاً في هذا المكان. لن نحصل على الإذن بالدخول إليه من جديد...

(1) وزارة الدفاع الأميركية: «عن فريق التحقيق في فقدان العاديات في العراق. المقدم ماتيو بوغدانس» المرجع نفسه.

الفصل الثالث

إلى منابع آشور

كانت ملكات نمرود آشوريات. لن تعرض كنوزهن إلا بعد أسبوع. الوقت كافٍ للذهاب إلى محافظة الموصل، في شمال العراق حيث توجد بقايا عواصم آشور القديمة تمثل بينها مدينة نمرود.

قال لنا الدكتور دوني جورج: «تجدون في الموصل مزاحم محمود، الرجل الذي اكتشف مدافن نمرود حيث كانت الملكات وكنوزهنّ. سترون، إن مزاحم رجل مهذب. قولوا له من قِبلي إننا نعتمد كثيراً على وجوده بيننا في الثالث من تموز/ يوليو المقبل».

سافرنا من بغداد في سيارة تسير على جميع الطرقات الأرضية (البريّة). الطريق المعبدة على خطين لا تشابه بينها وبين الطريق المليئة بالغبار كالتي كانت سنة 1931 عندما قطعها ماكس مالوان وزوجته آغاتا بعدما تركا أور والسير ليونارد وولي ليلتقيا في نينوى السير رجينالد كامبل تومبسن. وكان السيد رجينالد قد

اكتشف في خرائب هيكل عشتار الرأس البرونزي العجيب لسرجون الأكادي (2334 ـ 2279) ـ ولكن ربما كان رأس حفيده نارام سين (2254 ـ 2218) الذي حمل ألقاب «ملك المناطق الأربع» و «ملك الكون». إنه اكتشاف جديد ذو صفة محددة الهوية مثل اكتشاف كنز أور: كانت مملكة سرجون الأول أبعد من أن تكون محصورة داخل إطار أكاد وحده، بل كانت تشمل أيضاً الثغور الشمالية لبلاد ما بين النهرين. كان رأس البرونز معروضاً منذ اكتشافه في متحف بغداد عندما سرق في نيسان/ إيريل، قبل أن يعثر عليه في أحد المستودعات السرية التي استطاع العقيد بوغدانُس أن يزورها.

فيما وراء سامرّاء، التي كانت يوماً عاصمة الخلافة العباسية وتكريت، معقل أنصار صدام حسين، يرسم نهر دجلة خطوطه المتعرجة بين السلاسل الصخرية السّاحقة، وعلى قمة واحدة من هذه السلاسل، على الضفة الغربية من النهر توجد آثار آشور، العاصمة الأولى للامبراطورية الآشورية العظيمة. اكتشفت بعثة قيادة الألماني أندريه بين 1903 و 1913 مجموعة سكنية محصنة من مطلع الألف الثاني ق.م. الآشوريون شعب سامي جاء من الهضاب العليا لنهر دجلة وهو شعب اعتمد الصيد وتربية المواشي وعرف حياة الاستقرار، خلال الألف الثالث ق.م. تأسست آشور في حدود سنة 2400 ق.م. انتشرت وراء هيكل آشور الذي

يشرف على النهر. آشور، مثل مردوك البابلي، لم يكن إلهاً جديداً، بل كان مشاركاً لإنليل وأدنى مرتبة منه. وراء هيكله، محاريب آنو (آن) وسِن وشُمَش وأخيراً عشتار شريكة إنانا وأدنى منها منزلة، جميع هؤلاء يؤلفون حاشية لآشور.

آشور التي كانت تابعة للملوك الأكاديين ثم للسلالة الثالثة لأور. كما تؤكد المنحوتات، حكمها ابتداء من 1974 ق.م. أمراء مستقلون يعتبرون أنفسهم «غوثا» للإله آشور. وبعد سقوط السلالة الثالثة في أور أصبح الأمر ممكناً. إذ صار باستطاعة آشور، التي كانت تسعى للحلول محل المدن السومرية والأكادية السائرة في طريق الانحطاط، أن تستغل موقعها بحرية، عند مفترق الطرق النهرية التي تصل بلاد ما بين النهرين بأودية الأناضول في حين تفوق اقتصاد السوق، بمبادرة خاصة، على اقتصاد الهياكل والاقتصاد الموجه.

كان الأمير الآشوري، في بداية الألف الثاني، وسيطاً بين الإله آشور والناس كما كان قائداً للجيش. ورث مهماته من أسياده القدماء في سومر. غير أن المجمع الذي يرأسه لم يكن مجمع الكهنة ولكن مجمع البورجوازيين والتجار والمهيمنين على السلطة الاقتصادية. يحمل مجمع آشور، رمزياً، اسم «كارون» الذي يعني «الرصيف»، لأن مدينة آشور العاصمة، كجميع العواصم الآشورية التي جاءت بعدها، كانت مبنية على ضفاف

دجلة، الشريان العسكري والتجاري بامتياز. اكتسب ملوكها السلطة والقوة. يضم إريشون الأول (1942 ـ 1902 ق.م)، إلى مملكته وادي الأناضول الذي يوفر له ثروة طائلة.

أنشئت مراكز تجارية: في بوغاز كوي، في كولتيبه التي بنيت قربها قيصرية (التي هي اليوم كايسري) وفي هتوس القريبة من مرفأ سمسون الحالي على البحر الأسود. جميع هذه المستعمرات كانت تملك «رصيفاً كبيراً» وكانت خاضعة لرصيف وبلاط آشور اللذين يوجهان الأوامر ويجنيان أرباحاً طائلة من تجارة الأقمشة والحمير والأفاويه التي تكثر هناك.

أعلن شمسي، آداد الأول (1816 ـ 1783)، مثل نارام سين، نفسه «ملك الكون» وبالرغم من أنه اعترف بسيادة حمورابي، فقد شعر بأن له من القوة ما دفعه إلى شن حرب على لبنان. ولكن بعد موته ولثلاثة أجيال متعاقبة، عمت الفوضى في البلاد وخضعت للهيمنة الخارجية.

وابتداءً من القرن الرابع عشر ق.م. وتأسيس الامبراطورية الآشورية الجديدة استعادت المدينة نفوذها وقوتها المفقودين. ثلاثة ملوك عظام فرضوا قوتهم الآشورية في وسط الشرق الأدنى هم: أدادنيراري الأول (1298 ـ 1266) الذي احتل هربور وأودية دجلة العليا، شُلمان ـ آشاريدون الأول (1266 ـ 1236) الذي ضم إليه بلاد ما بين النهرين العليا وبنى مدينة نمرود

الأولى، وأخيراً توكولتي ـ نيرورتا الأول (1236 ـ 1199) الذي انتصر على الحثيين وأخضع الأناضول حتى بحيرة وان وآورروميه قبل أن يحتل بلاد بابل والجنوب. لكن الامبراطورية انهارت تحت ضربات الغزاة، لكي تنهض من جديد في القرن التاسع ق.م. مع تأسيس الامبراطورية الثانية التي بلغت ذروة القوة الآشورية في عالم ذاك الزمان.

وعندئذٍ انتقل مركز السلطة من مدينة آشور نحو الشمال، كانت فتوحات آداد نيراري الثاني (912 ـ 891) الذي أخضع أعالي دجلة وهربور وفتوحات كولتي ـ نيرورتا الثاني (891 ـ 884) الذي نشر السلام على شواطىء المتوسط، قد أعطت القوة لآشورنزيبال الثاني (884 ـ 859) فاحتل المدن الحثية الجديدة والمدن الأرمنية والفينيقية في شمالي سوريا ونقل عاصمته إلى نمرود، على بعد حوالي مئة كيلومتر نحو الشمال على الشاطىء الشرقي لدجلة.

ووسع خليفتاه شلمناصر الثاني وتغلاتفلاصر الثالث حدود الامبراطورية فشملت مجمل أراضي ما بين النهرين وسوريا وفلسطين. ونقل سرجون الثاني (722 ـ 705)، الذي هزم المصريين شر هزيمة، عاصمته إلى خورساباد على بعد مئة كيلومتر شمال نمرود على الشاطىء الشرقي لدجلة. وبلغت الامبراطورية أوج مجدها عندما أقام سنحاريب (705 ـ 651) في نينوى التي

أصبحت مركز العالم، وهي أيضاً العاصمة الأخيرة لآشور. وبعث فيها آسرحدون الثاني (681 ـ 669) وآشوربانيبال (669 ـ 626) أنوارها المتألقة قبل أن يحطمها الميديّون بقليل سنة 612 وحطموا معها أول إمبراطورية عالمية في الشرق الأدنى.

عندما وصل مالوان إلى نينوى سنة 1931، كان هذا التاريخ العجيب، الذي يمتد على ما يقرب من عشرين قرناً، موثقاً، إلى حدٍّ ما، بشكله الأساسي. واختار هذا العالم بالآثار، الفتى الذي كان يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة فقط، أن يهتم بالدرجة الأولى بتاريخ آشور ما قبل التاريخ، الذي هو أيضاً كما فهمه، بالقرب من آور وتل عبيد، تاريخ بلاد ما بين النهرين.

نقَّب في أعماق نينوى، فوصل إلى عمق ثلاثين متراً تحت تل كُيوندجيك «تلة الحمل الصغير» بعد سبعة أسابيع من الحفر. وجد خزفيات ردّها إلى بداية الألف السادس، إلى مرحلة دعاها نينوى الأولى وهي سابقة لمرحلة تل عبيد. هذه الحفرة خطرة: ثقب من ثلاثين متراً ليس شقاً عاديًّا. لكن مرحلة ما قبل التاريخ هي التي تستهوي مالوان ولا شك أنه في تلك الأعماق تدفن مفاتيح السر. من كان أسلاف آباء حضارة ما بين النهرين؟ وما كان امتداد حدودهم؟

في سنة 1933، نقل ورشته إلى تيبه رشوى وهو تل قائم إلى شمال شرق الموصل، بالقرب من قرية العرباشية التي عمل

الكثير من أبنائها في ورشة نينوى. وهم الذين حملوا إليها كِسراً من خزفيات معاصرة لثقافة حلف ونينوى الثانية. والفرق أنه بدل أن تكون عميقة الغور فهي قريبة من سطح الأرض.

أصبح مالوان رئيس البعثة. سمى مخططه «بعثة جرترود بل التذكارية إلى العرباشية القريبة من نينوى».

ويجد مالوان على قمة تيبه رشوى، على الفور، كِسرَ فخاريات تعود إلى عصر يسمّى عصر تل عبيد (الألفين السادس والخامس). على القسم الغربي من التلة مقبرة تعود إلى العصر نفسه. تحتوي هذه المقبرة على خمسة وأربعين مدفناً: دفن الموتى مع حلاهم وتمائمهم وأختامهم وأدواتهم، فأس من نحاس مثلاً. وفيما كان مالوان يتوغل في الحفر نحو العمق، كانت زوجته آغاتا كريستي منكبّة على تأليف قصة «جريمة في قطار الشرق السريع[1]»، القطار الذي استقلته للذهاب إلى بغداد عبر تركيا. اجتاز مالوان إحدى عشرة مُنشأة على التوالي بينها محترف فخاري من منتصف عصر عبيد. وبوصوله إلى الطبقة الآثارية الأخيرة اكتشف عشرة أبنية ذات سقوف على شكل قبة مبنية منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل عصرنا. أكبرها قاعة بيضوية

(1) Le Crime de L'Orient Express, Librairie des Champs-Élysées, coll. «Le Masque», 1934.

قطرها تسعة أمتار وعلو سقفها عشرة أمتار ومدخل طوله ثلاثون متراً. يجمع مالوان داخل هذه الأبنية تماثيل نساء مثيرة للاهتمام، عاريات أحياناً وأحياناً يرتدين ثياباً ولكن الصدر مكشوف بكرم وفير. يشير المرجان الذي وجد هناك إلى أن سكان تيبه رشوى كانوا يتاجرون مع سكان الأوقيانوس الهندي. وربما كان الثور حيوانهم المفضل: وجد هذا النموذج المكرر ممثلاً على مجموعة من الخزف مع خراف وعصافير كما وجد على تمائم.

من أجل تجربة أولى.

وعندما حمل مالوان مكتشفاته إلى متحف بغداد للحصول على إذن تصدير ضروري لإرسالها إلى لندن اصطدم بتمرد مسلّح. احتجت الجريدة «الهالي» ذات الميول القومية على ما سُمّي نهب التراث العراقي على يد علماء الآثار الذين ينتمون إلى الاستعمار البريطاني، وطالب القوميون، مستغلين دعم الرأي العام، بإعادة النظر بالقواعد المطبقة من مادة اقتسام العاديات التي حددتها جرترود بل سنة 1924. وعاد مالوان تلك السنة إلى المتحف البريطاني بخفي حنين. وبالرغم من تدخل وزارة الخارجية، لم يعارض الملك فيصل التشدد في قواعد الاقتسام التي نظمها قانون جديد في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1933.

«لا يلدغ عاقل من جحر مرتين». قرر مالوان في السنة التالية مغادرة تيبه رشوان ومتابعة البحث في سوريا، التي كانت

عند ذاك تحت الانتداب الفرنسي، وكانت سلطاتها أكثر ليبرالية وانفتاحاً على علماء الآثار الأجانب، واجتاز سنة 1934، ودائماً برفقة آغاتا، وادي هربور غير بعيد عن الحدود العراقية ويحدد اختياره على وقع شغر بازار حيث يقوم بحفريات في السنة التالية على رأس مئة وأربعين عامل عربي وكردي، فيجد هنا الطبقات الآثارية ذاتها التي وجدها في تل عبيد وتل حلف، وهي خاصة بالألفين السادس والخامس كما في بلاد ما بين النهرين. فاكتشف في آذار/مارس سنة 1936 في بقايا أحد القصور، مجموعة من اللوحات المسمارية تتحدث نصوصها عن ياماش آدو، ابن شمسي ـ آداد، أمير آشور في القرن التاسع عشر قبل عصرنا. حُرِّرت باللغة الأكادية وتشهد على ذوق ياشماه ـ أدوفي النساء والخيل وعلى نشاط تجاري كثيف بين آشور والأناضول عبر قناة وادي هربور.

فيتحمس عالم الآثار وينقل ورشته نحو الجنوب، إلى تل براك على ضفاف أعالي الفرات. ففي تل براك تلة مساحتها 800 على 600 متراً أثارت اهتمامه، وبدأ في سنة 1936 يكتشف أبنية عامة يبدو أنها أهملت عند منعطف الألف الثاني، وفيما كان يتابع أبحاثه كانت آغاتا تقوم بأعمال المنزل وتكتب قصة بعنوان «تعال قل لي كيف تعيش»[1]. ويكتشف ماكس آثار قصر ضخم لم يكن

(1) Dis-moi Comment tu vis, Stock, 1978.

بانيه سوى نارام سين رابع ملك من السلالة الأكادية التي أسسها سرجون الأول. وإذ تعمق في الحفر أكثر استطاع سنة 1938 أن يضع تسلسلاً تاريخياً يؤكد على استيطان دائم لتل براك، من الألف الخامس مع ثقافة تل حَلَف إلى الألف الثاني مع المرحلة الحورّية مروراً بسلالة أور القديمة وسرجونيي أكاد والمراكز الأشورية التجارية في هربور.

بلاد ما بين النهرين متنوعة سياسيًا، موحّدة ثقافيًا. هذه ليست أقل المعلومات التي أفشاها ماكس مالوان في حين كانت الحرب العالمية الثانية على وشك أن تندلع.

وفي نهاية هذا السفر عبر المكان والزمان بلغت سيارتنا أخيراً إلى ضواحي الموصل.

تأسست الموصل بعد خراب نينوى في القرن السابع ق.م. احتلها العرب سنة 641 ثم العثمانيون سنة 1638 وضمّها إلى العراق عند تأسيس المملكة الملك فيصل وحلفاؤه الإنكليز سنة 1918. تعد ستمائة ألف نسمة وهم بأكثريتهم من الأكراد والعرب؛ تنتشر منازلها وجوامعها منذ العهد العثماني على ضفتي نهر دجلة لدى خروجه من جبال الدهوك. مصدر ثروتها منذ قرن هو البترول الذي يتدفق في منطقتها بكميات وافرة، ولكنها اكتسبت شهرتها من التاريخ، لأنه هناك، قبل السير ريجينالد

والفتى مالوان اخترع علم الآشوريات وبدأت الحفريات الآثارية الأولى في بلاد ما بين النهرين.

تشهد شوارع الموصل، حيث يتجول الجيش الأميركي، مثل شوارع بغداد، ازدحاماً شديداً، والشرطة، هنا أيضاً، لا وجود لها، لقد استغرق دهراً الوصول إلى قلب المدينة انطلاقاً من أسوار نينوى القديمة التي بدأنا بالسير بموازاتها بعد أن اجتزنا جسر نهر دجلة. وعندما وصلنا، بعد لأي، وجدنا المتحف مقفلاً. عودوا غداً.

إنها مسألة «قتل وقت» لقد اتفقنا على أن نقوم برحلة...

في سنة 1840 عين الفرنسي الدكتور بول إميل بوتا، الرحالة العظيم (استكشف العربية السعودية واليمن) قنصلاً لفرنسا في الموصل التي كانت تشكل، آنذاك، جزءاً من السلطنة العثمانية، فبدأ للحال استكشاف المنطقة وانطلق ذات يوم جميل في طريق مستقيمة تتجه نحو الشمال حتى قرية عين صفني عند سفح جبال الدهوك. بعد مئة وستين سنة، سرنا نحن في الطريق نفسها. تمر الطريق في منطقة كثيرة الأودية، تنتشر فيها القرى الكبيرة، وهي في هذا الفصل تغطيها حقول القمح. وقد بلغ أوان حصاده. وفيما وراء ذلك، وانطلاقاً من خورساباد، القرية الصغيرة التي تواجه بيوتها تلاً كبيراً حيث يبدو أن لا شيء ينبت،

هناك تبدأ أرض الأكراد. منذ سقوط صدام يسيطر على عين صفني ويدير شؤونها عناصر من الحزب الديمقراطي الكردي. صَحِبنا بعضهم إلى منزل الحاكم، الدكتور باسيل، وهو رجل مطمئن هادىء وجدناه يشرب الشاي برفقة بعض أعيان المدينة. فأرسل لمواكبتنا، مشكوراً، السردار عمر حسن، وهو شرطي كردي هادىء بشوش. رافقنا السردار إلى موقع باڤيان، إلى منابع نهر غومل، هدف رحلتنا.

وفي عين صفني تبدأ جبال الأناضول، يرتفع التضريس الصلصالي في الدهوك تباعاً كما لو كانت التلال أدراجاً توصل إلى السماء. وراحت تختفي الحقول المزروعة شيئاً فشيئاً لتخلي المكان لفسحات من الأشواك المزهرة. الدهوك أرض جرداء، بلاد الحصى والأغنام، تخبىء الكثير من المفاجآت. عند التفافنا حول سلسلة صخرية طالعنا فجأة نهر غومل. إنه خيط دقيق من فضة يحاصره القصب والصفصاف وأزهار الحقول. إنه منظر فردوسي. لقد فتن بوتا الذي جاء إلى هنا منذ زمن طويل. نحن على مقربة من منابع نهر غومل، ولكي نبلغها، علينا أن نسير بجانب الضفة ونمشي وسط حقل من النبات الشائك تكثر فيه الضفادع ودجاج الماء والأفاعي. نهر غومل ضيق المجرى صافي المياه يطفح بالأسماك.

«إنه ينبوع الفردوس» قالها السردار عمر وهو يشير بذراعه

الممدود نحو خندق عظيم بين السلاسل الصخرية الفاتنة حيث يتفجر مجرى الماء.

وفي أسفل هذا الينبوع اكتشف بوتا في حدود سنة 1840، صخرة ضخمة يظهر على جانبها الشرقي المشرف على النهر، النقش العظيم البارز. نرى عليه: سِن ـ آهي ـ إريبا أو سنحاريب التوراة الذي حكم آشوريا من سنة 705 إلى سنة 681 ق.م. يعتمر هذا القائد تاجاً إمبراطورياً ويحمل شارات ملكية يتبعه موظف كبير ويتلقى الخضوع من أحد أتباعه المصحوب بحاشيته. سنحاريب هو سيد إمبراطورية مترامية الأطراف ويحتاج إلى عاصمة تناسب مقامه، فاختار نينوى التي لم تكن، حتى ذلك التاريخ سوى قلعة حصينة. وكانت تحتاج، من أجل توسيعها لتتلاءم مع البلاط، والعسكريين والموظفين والتجار والكتبة، إلى تبني سياسة حقيقية هدفها تجهيز قطعة الأرض تلك. وحدث هذا الأمر، كما يحدث دائماً في بلاد ما بين النهرين، بتحديث نظام الري، ولم يعد نهر دجلة كافياً، هذه المرة، لأن نينوى ستحتاج إلى الكثير من المياه الصالحة للشرب، فدجّنت مياه غومل. سلسلة من السدود كانت كافية لتقنية مجراه. تذكرنا هذه الأعمال بأعمال مينيس عند تأسيس ممفيس في الأيام الأولى لمصر الفرعونية، وهكذا أراد سنحاريب، تخليداً لعمله، أن يحفر رسمه هناك إلى الأبد.

إن هذا المكان سحري عجيب بالنسبة إلى السردار، وعندما يكون رواده قليلين ـ لا يتكلم عن آل علي بابا، لأنه لا يخافهم ـ يصطحب خطيبته إلى هنا. وكانت هذه الزيارة لبوتا مناسبة لانطلاقة جديدة. فبعد أن رأى هذا البناء قرر الذهاب ليبحث عن خرائب نينوى.

لقد اعتبر باڤيان برهاناً ملموساً على أنه في سهل الموصل تغوص بقايا مدينة عظيمة. وبعده بعدة سنوات جاء الإنكليزي أوستن لايارد، الذي خلد زيارته بنقش يمثله متسلقاً منحوتة سنحاريب ويدخل في إحدى القاعات التي حفرها الرهبان المسيحيون بعد ذلك بألف عام لكي يجعلوها صومعة للتنسّك، لكن الحالة التي وصف فيها لايارد باڤيان تختلف عن الحالة التي نجدها عليها نحن.

الصورة الملكية التي كانت جلية في القرن التاسع عشر تبدو الآن ضبابية مهتزة، الكلاب الكبيرة التي كانت ماثلة عند أقدام الملك قد امّحت. أثناء الحرب الأهلية بين الأكراد وصدام حسين، عمد بعض اللصوص إلى انتزاع بعض الأجزاء لبيعها.

وأثناء عودتنا من باڤيان توقفنا في قرية خورساباد. كانت القرية سنة 1842 في الجهة الأخرى من الطريق جاثمة على التل الذي تواجهه اليوم. وكان كافياً للإغراء على نقلها قول أحد الكلدانيين القرويين الذين كانوا يسكنونها آنذاك لبول ـ إميل بوتا بأن حجارة منحوتة موجودة في أسس منازل قريته.

دخل بوتا إلى منزل القروي. كانت الحجارة التي رآها بارزة تشبه أطُراً أو ربما قمم جدران غاصت عميقاً في التراب. المنحوتات التي تحدث عنها القروي الكلداني هي نقوش ضئيلة البروز لا يستطيع أن يرى منها سوى قسمها الأعلى. أسلوبها قريب من منحوتات باڤيان. قرر بوتا عندئذٍ أن يقيس مساحة التل. إنها 45000 م.[2] فلم يشك الفرنسي في أن تحت تلة خورساباد بقايا قصر عظيم غارق في التراب ولا شك أن القصر بني في أيام سنحاريب. وكان بوتا في تلك الفترة مشغولاً بورشة بدأها في مكان آخر ليست بعيدة عن الموصل على الضفة الشرقية لنهر دجلة حيث تنتصب أكمات عظيمة يظن أن تحتها خرائب نينوى القديمة. لكن الحفريات التي أجريت على تل النبي يونس وعلى تل كويوندجيك، عند أبواب الموصل لم تؤدِّ إلى نتائج ذات بال. وبوتا هو ككل المبتدئين يستعجل الوصول، فما رآه في خورساباد كان كافياً بالنسبة إليه، فظن أ نه سيجد هناك خرائب نينوى الأسطورية. فكتب إلى المؤسسة الفرنسية.

كل أرض الموصل مغروسة بالآكام تتكلس تحتها خرائب تثبت وجود مدينة عظيمة، هذه المدينة هي نينوى ـ جميع الجغرافيين المعاصرين متفقون على ذلك، وهيرودوت أيضاً. واسم هذه العاصمة الآشورية القديمة المحفوظ في البلد، لا يرقى إليه أي شيء، وكما أن الفرات يجري وسط خرائب

بابل هكذا لا تزال ترتفع جثوتا قبر نينوس ومحرقة سردانابالْ على ضفتي دجلة[1].

استجابت باريس راضية لطلب المساعدة الذي وجهه إليها بوتا. فأسرح أوجين ـ نابوليون فلاندان إلى خورساباد. اشترى بوتا منازل القرية الكلدانية ودمرها. بدأ العمل سنة 1843 بثلاثمائة عامل كلداني مسيحي حسب الطقس النسطوري. ودام من آذار/ مارس إلى أيلول/ سبتمبر. قُطِّع التل شرائح مثل فطيرة الملوك، وظهرت على عمق ثمانية أمتار خمس عشرة قاعة مغطاة جدرانها بـ 1500 م^2 من المنحوتات:

نشاهد أكثر من عشرين معركة، هجمات على مراكز محصنة، مآدب باذخة، رحلات صيد، مواكب دينية ترفع الرموز الصوفية[2].

لم يتردد أوجين ـ نابوليون فلاندان، الذي صنع لوحات فخمة تعلق عليها منحوتات خورسباد[3]، في التأكيد على «تفوق»

---

(1) «اكتشاف عاديات نينوى في الموصل»، مجلة الإلّوستراسيون عدد 174، 27/ 6/ 1846.

(2) المرجع نفسه.

(3) بول إميل بوتا، أبنية نينوى التي اكتشفها ووصفها بوتا، ورسمها أوجين ـ نابليون فلاندان، I-IV (فن معماري، نحت، كتابة وتعليق)، باريس، 1847 ـ 1850. (ملك آشوري أسطوري يتهم بأنه أحرق نينوى ـ المترجم).

فناني آشوري على فناني مصر، وعلى تشابه أسلوبهم بأسلوب اليونانيين الذين يرى فيهم الورثة الجديرين.

دونريشت يعدّ الطراد «الوكوركوران». تجاوز رأس الرجاء الصالح وعبر الأوقيانوس الهندي ليلقي مرساته على ضفاف الفرات 1845. في هذا الوقت جُرَّت منحوتات خورساباد إلى دجلة لتنقل بالأطواف إلى الموصل حيث شحنت في قوارب من خشب وقصب تعوّمها جلود معزى منفوخة بالهواء. استغرقت هذه الرحلة العجيبة ثمانية أيام لتصل إلى بغداد حيث تنتظرها قوارب شراعية ضخمة، تنقل الشحنة إلى البصرة حيث تشحن بالكوركوران الذي وصل إلى الهافر في بداية 1847. فيستقبله قارب مسطح عادي جدًّا[1].

وبالرغم من كل ذلك كان وصوله إلى باريس ظافراً، توقف الزورق عند رصيف اللوفر حيث أعدت قاعات خصيصاً لاستقبال ثلاثين أثراً وصلتْ من العراق. اعتقد بوتا، في قمة مجده، أنه اكتشف نينوى. لقد كان على خطأ: ليست نينوى بل دور شارّوكين عاصمة سرجون الثاني (722 ـ 705) سلَف سنحاريب هي الموجودة في خورساباد. وتشاء سخرية القدر أن يغادر عالم

(1) «متحف نينوى»، مجلة الإلّوستراسيون، عدد 220 (مجلد 11)، 15/ 5/ 1847.

الآثار، بالصدفة، نينوى التي كان على وشك أن يكتشفها قرب الموصل ليصنع مجده في مكان آخر، والحقيقة أن ثروات آشوري هائلة وعواصمها عديدة.

الفصل الرابع

الويل للمدينة السفاحة

لدى عودتنا إلى متحف الموصل أدخلنا إلى الطوابق التحت ـ أرضية، حيث تجمع الموظفون منذ شهر نيسان/ إبريل. أمناء سر وعلماء يعملون حول طاولة طويلة تستخدم أيضاً لتناول الطعام، المدير، منهل جبر، هو عالم آثار مسؤول عن خرائب نينوى لا يفصله عن موظفيه سوى واجهة زجاجية خشنة. يستقبلنا جالساً وراء مقعد صغير على شكل معلم مدرسة، ويعتذر عن عدم استقبالنا بما يليق لأن مكتبه، كسائر الأشياء في المتحف، نهب في شهر نيسان/ إبريل.

ومزاحم محمود، العالم المسؤول عن نمرود، أين هو؟ يظن منهل جبر أنه يمكن رؤيته غداً. وبانتظار ذلك دعانا لزيارة متحفه. كانت قد اتخذت بعض الاحتياطات قبل الحرب. جاءت السيدة نوادا المتولي إلى الموصل لكي تشرف على نقل بعض مجموعات المتحف. كانت الآثار الموجودة فيه تمثل قرناً ونصف

القرن من علم الآثار، منذ بوتا. وترتبط بذلك أسماء لايارد، بلاس، هرمزد رسّام، طومسون، مالوان... أشياء لا عديد لها وُضِّبت في صناديق لتنقل إلى مستودعات متحف بغداد. ولكن لسوء الحظ، كان من المستحيل، بسبب ضيق الوقت، وعلى الأخص لعدم وجود أجهزة مناسبة، تصويرها؛ وبما أن الجداول التي وضعت لها قد اختفت، بات من الصعب معرفة مصيرها، أو بالأحرى إيجادها. ويفهم من هنا، بشكل أوضح، لماذا انتظر العقيد بوغدانُس أكثر من شهر قبل أن يقرر دمج مسألة المستودعات الشائكة في منطق الجداول التي كان من مهمته أن ينظمها.

أصيب متحف الموصل بالقصف في شهر آذار/ مارس. ولم يعتدَ على محتوياته في حين كانت القوى الأميركية ومحاربو الحزب الديمقراطي الكردي يطردون القوى البعثية والشرطة والجيش خارج المدينة. كان انهيار الدولة في الموصل، كما في سائر أنحاء العراق، سبباً للنهب الشامل: إدارات، مؤسسات، مصارف، أبنية مناصري النظام، كلها نهبت دون أن يتدخل الجيش الأميركي لعدم وجود تعليمات بذلك.

في العاشر من نيسان/ إبريل، كان منهل جبر وجهاز الموظفين في أمكنتهم عندما دخل رجال مسلحون حطموا أبواب المتحف، وكانوا، كما حدث في بغداد، بصحبة «عارفين»

خبراء، بعد أن طردوا منهل جبر ومعاونيه. بدأوا بالنهب المنظم للقاعات والمستودعات التي انتزعوا مفاتيحها. بدأوا بالقاعدة التي عرض فيها الإفريز الملون، الأسود الضخمة المجنحة. ومنحوتة النزهة التي أخذت من قصر آشورنزيربال الثاني في نمرود. إنها تشهد على عظمة آشورنزيربال الثاني (آشور نتزير ـ أبلي الثاني، 884 ـ 859). الذي فرض الجزية على المدن الحثية الجديدة والآرامية والفينيقية في شمال سوريا، ولكن لم يهتموا بها، فهذه الأشياء ثقيلة وضخمة يصعب حملها. ولوحِظَت الاستراتيجية نفسها في القاعات الآشورية في متحف بغداد حيث لم تمسّ التماثيل الضخمة والمنحوتات. يجب في المرة القادمة طلب المزيد من الوقت!

كان مطمح النهابين ينصبّ على أحد أبواب قصر بلاوان الذي بناه آشورنزيربال الثاني وخلفه شلمناصّر الثالث، وقد حمل إلى هنا بعد اكتشافه سنة 1956، ارتفاعه سبعة أمتار، مصنوع من خشب الأرز، زين بثمانية سجلات أفقية تحمل محفورات نقشت في البرونز. يرى في هذه السجلات، كما على لوحة العلم، الحرب، المنتصرون والمنهزمون، السلام، استقبال آشورنزيربال للضرائب من الشعوب الذين هزمهم، وأخيراً اصطياد الأسد والثور، وهي رياضة أثيرة لدى الملك. تشهد هذه المنحوتات، كما يشهد العاج، على ولادة فن آشوري جديد قبل أقل من قرن

بعد تأسس الإمبراطورية الآشورية الثانية، التي أسسها أداد نيراري الثاني (912 ـ 891) قاهر المدن الآرامية في أعالي دجلة وهربور.

انتزعت المنحوتات وقطعت قطعاً صغيرة، ليسهل نقلها وبيعها في الخفاء، ويمكن تصور مَرَح هواة جمع الآثار الفاسدين أمام هذه القطع الصغيرة التي يخبئونها ربما في علب مصنوعة من العاج.

والباقي يحدث في المستودعات: أوانٍ، كِسَر خزف، تماثيل صغيرة، عاديات غير معروفة جميعها اختفت ومعها رأس الأميرة سامي، حفيدة الملك سانا ترونغ الذي حكم مدينة حترا في القرن الثاني ق.م. ويقدر منهل جبر، مستسلماً، بأن الخسائر لا تعد ولا تحصى.

يذهب «الخبراء» فتأتي طوابير المخربين. بعد أن حطموا تماثيل صدام التي تملأ الموصل، انسلوا إلى المتاحف ونهبوها. حُطِّمت تماثيل عديدة أصلية أو منسوخة، نظفت المكاتب، ودام هذا المهرجان حتى 12 نيسان/إبريل، التاريخ المعيّن. عندما تدخل الجيش الأميركي ولكن بعد فوات الأوان، كان متحف الموصل قد نهب.

وليس هذا كل شيء: ففي الوقت عينه، علي بابا في نينوى يهاجم العاصمة الأخيرة. تنتزع منحوتات قاعة العرش. وتفكك

الغوغاء السقف الحديد الذي يحمي بقايا مكتبة آشور بانيبال من العوامل الطبيعية. فيما القيادة العامة للجيش الأميركي ليست بعيدة من هناك سوى بضع مئات من الأمتار، ولكنها، كالعادة، لم تتحرك. يحتل اكتشاف نينوى مركزاً ممتازاً في تاريخ الآشوريات وعلم الآثار.

وعندما عاد بوتا إلى فرنسا أخلى المكان للإنكليز، وصل أوستن لايارد، الذي قام بعمليات تسلق في باڤيان، إلى الموصل سنة 1845 وخلال خمس سنوات تجول هذا الفتى، البالغ من العمر فقط ثمانية وعشرين عاماً، في الشرق الأوسط في تنكرات مختلفة، ارتدى خاصة زيّ أرض لورستان حيث يعرف بدوها الرحل بأنهم لا يملكون «سوى الأرض الواقعة تحت أقدامهم». عند ملتقى حدود إيران وأفغانستان، في الموصل ارتبط لايارد بصداقة حميمة مع هرمزد رسام، زعيم مسيحي من الطائفة النسطورية، وقد أصبح دليله وشريكه في الحرب الصغيرة التي شنها الإنكليز على الفرنسيين، راود الشيطان لايارد عن علم الآثار فراح ينقب في نمرود حيث عثر سنة 1846 على قسم من قصر آشورنزيربال الثاني وكثير من قطع العاج بانتظار مالوان... ثم توجه نحو تل كويونجيك وتل النبي يوسف اللذين تخلى بوتا عنهما وانتقل إلى خورساباد. وكان ذلك له مجداً. بدأ باكتشاف قصر سنحاريب، مؤسس نينوى وثلاثة كيلومترات من النقوش.

وقال عنه الفرنسيون إن «المسيو لاپارد هو عميل إنكليزي»[1] الحسد عيب خسيس! على أن بوتا وبعده سارزيك، وإن كانا فرنسيين، لم يكونا سوى عميلين، في وقت كانت السلطنة العثمانية تعتبر «الرجل المريض الذي يجب تقاسم تركته عاجلاً أم آجلاً». والأكيد أن ليس للعملاء، في فرنسا، ذكر طيّب.

وإذ تابع لايارد أبحاثه، اكتشف سنة 1852 في تل كويونجيك القاعات المنهارة «للقصر الجنوبي الغربي» في نينوى. وكانت أرض البناء مغطاة بكميات من اللوحات التي تخص هيكل نبو إله الآداب، الذي شيده آشور بانيبال، ملك آشوري (آشورربان ـ أبلي، 669 ـ 626). وبعده نقّب هرمزد رسّام القسم الشمالي من القصر حيث كشف عن تماثيل رائعة وعن عدة غرف تُرصَف فيها لوحات بالكتابة المسمارية، إنها مكتبة ضخمة، تحوي 25000 لوحة من ذلك الصلصال الذي يكدسه دجلة والفرات عند فيضانهما، وهي رقائق ملساء «يسجل الكتبة عليها بقصبة محدّدة إشارات مسمارية، لها شكل مسمار»[2].

أكثر النصوص المدونة عليها نسخت عن لوحات أصلية، كتب أقدمها في القرن الخامس عشر ق.م. نقلت عن لوحات

(1) الإلّوستراسيون 27/ 5/ 1847.

(2) جورج كونتنو، ملحمة غلغامش، نشيد بابل، محترف الكتاب 1939 ص 11.

مشويّة بالنار في نهاية الألف الثالث، هذا هو تراث سومر جمعه من مكتبات نيبور وسيبار، كتبهُ آشوربانيبال. وخُصَّت، حينذاك، برجال الأدب.

العالم الذي لا يبعثر الوثائق بل يعيدها إلى درجها تشمله الإلاهة نِينيٌ بعطفها، ومن يخرجها من المكتبة (إيّنا) فلتلاحقه بغضبها[1].

إن القصة التي ترويها هذه اللوحات. التي تشكل رأس مال مكتبة آشوربانيبال في المتحف البريطاني، ليست سوى ملحمة غلغامش الشهيرة، التي لولا ذلك لكنّا نجهل، على الأرجح، هذه النصوص. والحق يقال أن ذاك تراث منقول من بابل التي دمّر سنحاريب هياكلها.

ويل لمدينة الدماء
الممتلئة بأسرها كذبا
وخطفاً
لا تفارقها الفرائس[2]!

ومرة أخرى، أُزيلت نينوى من الوجود وأبيحت للغوغاء، صودرت آخر آثارها وغنائمها. انصبت عليها لعنات لا نهاية لها.

(1) المرجع نفسه.
(2) نحوم، خراب نينوى (3، 1).

وحقاً ما قال نحوم «إن يهوى إله حسود منتقم». ولم يبق أمام پوارو سوى خطوة واحدة لتحميل نحوم وزر المأساة. ولكنه بالتأكيد لن يجتازها. . بل إنه الجهل والبربرية، تتعاقب الأجيال وتتشابه قبل المسيح وبعده!

وفي حقل من الخرائب تنفسنا الصعداء بصحبة أمين الموقع، وقد شاهد عاجزاً، هذه الكارثة الجديدة. لقد حطم اللصوص ودمروا وأفسدوا قصداً وعمداً وكأنما حكم على التاريخ مرة أخرى أن يزول.

ولم يكد العارفون يتوارون، كما حدث في بغداد ونينوى وبابل حتى دخلت الغوغاء إلى متحف الموصل لا ليسرقوا ما لم يبقَ له من وجود بل ليحطموا ما كان باقياً. هل تصرفت تلقائياً أم سعَّر جنونها تحريض محرِّض ما؟

في أفغانستان نسف الطالبان سنة 2001 تماثيل بوذا في وادي باميان على غرار ما فعل الخمير الحمر، قبل ذلك، بالتماثيل القريبة من كليانغ وبايون في مدينة أنغكورتوم الملكية. ولكن كان وراء ذلك إرادة طغاة يسعون إلى أن يمحوا ذاكرة الشعوب الذين يريدون ترويعهم. وفي العراق حدث في ربيع سنة 2003 عكس ذلك. فالجماهير هي التي ثارت على ما تعتبره، بالغريزة، رمز الطغيان. .

ما حدث هو سرقة مقصودة مخططة منظمة بأدق

تفاصيلها. . وإلى جانب السرقة حدث في تلك الأيام من نيسان/ إبريل، دمار لا يمكن أن يفسَّر فقط بالنزعة التدميرية وهو يمت بصلة إلى التدمير الذاتي أكثر مما هو اضطهاد الصور والتماثيل. كيف يسمح الإنسان لنفسه أن يفعل ذلك؟ فهل جبر لا يعرف الجواب، إن ما حدث يفوق الإدراك ولكن يستحيل، أمام نتيجة كهذه، ألا نهتم لبقاء القيمة المعنوية التي يمثلها الدفاع بحد ذاته عن هذا التراث، أكثر مما نفعل بالنسبة إلى الكمال المادي لتراث البشرية الذي يعتبر الدفاع عنه من الأمور الجوهرية.

قال شِنه پون وزير الثقافة الكمبودية، في پنوم پنه، سنة 1988 لكاتب هذه السطور، فيما يخص التدمير الذي أحدثه المتعصبون لپول پوت.

> *لم يفكر أعداؤنا بقيمة تراثنا. هناك الإرث المادي، الهياكل، مثل هياكل أنغكور، النحت، النقش؛ وهناك التراث اللامادي، الأربعة آلاف والخمسمائة تعبير أساسي في رقصة الباليه لدى الخمير، مسرح الظل الصغير ومجموعة المسرحيات، كل ذلك يشكل التراث الذي هو روح الشعب وما يؤسس لهويته، أجل، هذا هو التراث، إنه روح شعب الخمير.*

بهذا الكلام، كان شين پون، الذي يشكل عضواً في الحكومة التي تسيطر عليها ڤيتنام، التي كانت حينئذٍ في حرب مع الخمير الحمر، يفكر بإبادة الجنس البشري الذي اقترفها هؤلاء.

إن تدمير التراث هو تدمير روح الأمة بل الأمة بحد ذاتها. ماذا حدث، إذاً في نيسان/إبريل سنة 2003، في بلاد ما بين النهرين في حين كان بعض السياسيين يناقشون في واشنطن موضوع الوجود الحقيقي أو المفترض للشعب العراقي وللدولة أو الدول التي ستعطى نصيبها من الفئات الدينية والقومية والعرقية[1].

---

(1) ليسلي جلب، «سنيون، شيعيون وأكراد - تقسيم العراق إلى دُوَل ثلاث» إنترناشيونال هيرالد تريبيون، 26/ 11/ 2003. يضع جلب، في هذه المقالة، أن الدولة العراقية، التي أوجدها الإنكليز سنة 1921 عند تأسيس وصاية جمعية الأمم، لم تكن لتوجد إلا باستخدام القوة الساحقة لمصلحة سلطة يهيمن عليها السنيون وصدام حسين. وأفضل وسيلة للأميركيين لكي يضعوا حداً للمسألة العراقية التي سممتها مقاومة السُّنَّة أنفسهم للوجود الأميركي الذي ارتضاه الشيعة والأكراد، هي قسمة العراق إلى ثلاث دول منفصلة: «سنية وشيعية وكردية الفكرة العامة هي تقوية الشيعة والأكراد وإضعاف السنة وانتظار قرار حل فدرالي أو دول مستقلة».

الفصل الخامس

ارامل نمرود

نجح منهل جبر، أخيراً، في الاتصال بمزاحم محمود، لقد كنا على موعد معه في نمرود هذا الصباح، عند الساعة الثامنة. ولكي نصل إلى هناك كان علينا أن ننطلق من الموصل، بمحاذاة أسوار نينوى، والانطلاق في طريق الجنوب التي توصل إلى آشور وبغداد. وبالرغم من أن الوقت كان لا يزال باكراً، راح السير الكثيف يزداد ازدحاماً، في حين كنا أثناء مغادرتنا محيط المدينة، ووُجِدْنا بعد قليل محاصرين بازدحام هائل كحلقات سلسلة، سيارات وشاحنات تتقدم ببطء في أرض مكشوفة، وزيادة في الطين بلة، هبت الرياح وتغطت السماء بغيوم بنفسجية غريبة. وأصبنا بعد قليل بنوبة سعال حادّة. ماذا يجري؟ مسافرون قادمون من الاتجاه المقابل أكدوا أن آل علي بابا نسفوا مستودعاً للأسمدة الكيميائية في جوار تل حسونة على الشاطىء الغربي من نهر دجلة. ولدى وصولنا، بعد جهد جهيد، إلى مفترق الدرب التي توصل إلى نمرود، أوقفنا حاجز للقوات الأميركية وأجبرونا على

تغيير طريقنا، ورحنا نسير خبط عشواء ولم نصل إلى نمرود إلا في حدود الساعة التاسعة وكان الجو ثقيلاً ماطراً.

توقفت سيارتنا في ما كان، في الماضي، الفناء الخارجي للقصر الشمالي الغربي، أكبر الأبنية التي شيدها، انطلاقاً من سنة 878 ق.م. آشورنزيربال الثاني على قلعة نمرود التي كانت تعرف آنذاك باسم كَلْحو.

بعد خمس سنوات من تسلّم آشورنزيربال العرش أخذ على عاتقه إنجاز العمل الذي بدأه جده آداد - نيراري الثاني وأبوه توكُلتي - نيرورتا الثاني اللذين رسّخا أسس مملكة آشور التي زعزعتها ثلاثة قرون من الاضطرابات. لقد شن حروباً على جميع حدود مملكته وغامر في غزوات عظيمة قادته عبر سوريا إلى جبل لبنان والبحر الأبيض المتوسط الذي استحم فيه. وفي قاعة العرش كتابة تخلد هذه الفترة التاريخية:

> *غسلت سلاحي في البحر الكبير وقدمت قرابين للآلهة، وتلقيت الجزية من ملوك الشاطىء، من سكان صور وصيدا وبيبلوس وماهلاّتا ومايزا وكايزا وآمرّو وأرواد التي في وسط البحر: ذهباً وفضة وقصديراً وبرونزاً وقِدْراً من برونز وقماشاً من كتان وعاجاً ومخلوقات بحرية*[1].

---

(1) رواه ميشال رواف، أطلس ما بين النهرين والشرق الأوسط القديم. باريس. منشورات الفنال 1990.

غادر آشورنزيربال الثاني آشور وباشر عند ملتقى دجلة ورافده الشرقي الزاب الأعلى، بناء كَلْحو التي أصبحت على مدى خمسين عاماً عاصمة آشور، وأضاف شلمناصّر الثالث، إلى القصر الشمالي - الغربي، قلعة عظيمة والقصر الجنوبي الشرقي «لتنظيم المعسكر، للعناية بالخيول، بالعربات، بالسلاح، بتجهيز العسكر وبغنائم الحرب»[1].

لكن اليوم، لم يعد هيكل نيتارتو، إله النحاس والحرب، وقصر آداد نيراري الثاني «ملك الكون»، ومؤسس الامبراطورية الآشورية الثانية التي شعّ نورها على العالم من القرن الحادي عشر حتى القرن السابع ق.م، وقصر أبيه آشورنزيربال الثاني، قاهر الحثيين والأراميين والفينيقيين، وقصر الحكومة، وهيكل نابو، إله الذكاء وقصر شلمناصّر، لم تعد هذه الأبنية تحت حراسة مقاتلي الإله آشور ولكن تحت حراسة ميغيل وميسّي وتوماس الجنود في الجيش الأميركي.

وبعد مضي أسبوعين على تمركز ميغيل وميسي وتوماس قرب الأسود المجنحة ذات الرؤوس الإنسانية التي تحرس الباب الشمالي لقصر آشورنزيربال اضطروا إلى التصدي لهجوم قامت به عصابة آل علي بابا، ما تسمى هنا، دون تمييز، نهابين، قطاع

(1) المرجع نفسه.

طرق أو أنصار صدام، قال ميغيل ابن العشرين عاماً، القصير، المربوع القامة المتين العضلات، الصامت مثل أجداده في غوام، الجزيرة القائمة في الباسيفيك! «سيدي، لقد أطلقنا النار عليهم لمدة ساعة وأظن أنهم فهموا. على أي حال، لم نعد نراهم منذ ذلك الحين». . ولكن منذ أسبوع فجر آل علي بابا مستودع ذخيرة على بعد بضعة كيلومترات من هنا. وروى ميسي، الأسود، البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، الذي يسكن أهله في شارع 145 في هارلم، نيويورك: «لقد ارتجت الأرض، سيدي، خلت القصر ينهار بنا، وحملتني الذكرى إلى 11 أيلول/ سبتمبر»، البارحة أيضاً فجر آل علي بابا مصنع سلفات وتوارت السماء وراء سحابة زرقاء رمادية وسرى إحساس بالاختناق، الأمر الذي لا يتناسق مع ميزان الحرارة الذي يقف بثبات عند حدود 45 درجة مئوية في الظل. وعبّر توماس البالغ من العمر سبعاً وعشرين سنة، الذي تطوع من جديد وجاء من كوسوفو، عازماً على أن يفهم نمرود، قائلاً: «الحالة صعبة، سيدي، ولكن لا يهم، إن ما يفتنني هو القصر. هنا بدأ كل شيء التاريخ، الحضارة. لقد قرأت ذلك في التوراة، ليس عندنا في الولايات المتحدة أمثال هذه الأمكنة، فقط بعض خِيَم الهنود. إن هذا القصر يسرني سيدي! أتعرف ذلك؟». جاء في سفر التكوين أن كوش بن سّام بن نوح الذي نجا من الطوفان هو وأولاده الثلاثة وكنّاته وجميع حيواناتهم الطاهرة

والنجسة، إن كوش هذا قد ولد نمرود.

> وكوش ولد نمرود وهو أول جبار في الأرض. وكان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب، وكان أول مملكته بابل وآرك وأكّاد وكلنة في أرض شنعار. ومن تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح وراسن بين نينوى ركالح، وهي المدينة العظيمة (تكوين، 10، 8).

وهكذا كان توماس خليفة علماء الآثار الذين تعاقبوا على نمرود منذ أواسط القرن التاسع عشر؛ وكان يتابع قراءة جدول الأمم عندما طلع علينا أخيراً مزاحم محمود، الرجل الذي نبحث عنه منذ أيام. فحيّاه هؤلاء الجنود الأميركيون باحترام، ربما كانوا من جيل أبنائه. مزاحم محمود أزرق لون العينين، رقيق أهيف أنيق حيي خالص الصداقة، حط رحاله في نمرود منذ بدء هذه الحرب، إنه حارس المدينة والجنود يعتبرونه قائداً لهم. وهو أيضاً آخر فرد من السلالة العجيبة لعلماء الآثار الذين تعاقبوا هنا منذ قرن ونصف القرن، وعنهم أراد أن يحدثنا أولاً حين دخلنا إلى قاعة عرش آشورنزيربال الثاني القائم وراء باب الأسود.

لم يكن أول من نقب في أرض كَلْحوا القديمة سوى لايارد الذي ظن سنة 1845 (لم يكن قد نقب تل كويونجيك بعد) أنه سيجد هناك خرائب نينوى. وفي ست سنوات اكتشف القصر الشمالي الشرقي وعِدّة أبنية للجهة الغربية من القلعة (الأكروبول)

التي بني عليها هذا القصر. وفي سنة 1853، اكتشف معاونه هُرْمُزد رسّام هيكلاً مُهدى للإله نبو وتماثيل أخرى أهداه إياها آداد ـ نيراري الثالث (810 ـ 783). وفي السنة التالية، حدد العالم الجيولوجي د.ك ـ لوفتوس موضع القصر الجنوبي الشرقي حيث وجد كمية كبيرة من العاج المحفور.

وبعد عشرين سنة استكشف بريطاني آخر هو جورج سميث هيكل نبو وحقق نصوصاً تتحدث عن مملكة تغلا تفلاسر، آخر أمراء كلحو العظام الذي كان يحمل أيضاً لقب سومرواكاد. ونبش هرمزد رسّام، بعد عودته سنة 1878، بقايا هيكل عشتار، ونبش على بعد 16 كيلومتراً نحو الشمال، في بلاوة، ما تبقى من نقوش في برونز أبواب قصر شلمناصّر التي انتقلت نماذج منها، منذ سنة، إلى أيدي هواة جمع آثار من باريسيين ولندنيين.

وظُنّ حينذاك أن موقع نمرود الأثري قد نفدت آثاره ولم يعد أحد يهتم به لمدى سبعين سنة، وتوقف التنقيب حتى عودة ماكس مالوان وزوجته سنة 1949 فاستؤنف من جديد.

أمضى ماكس أيام الحرب في خدمة سلاح الجو الملكي، بين القاهرة وطرابلس (في ليبيا)، وإذ عجز عن ممارسة مهنته استغل الوقت لمطالعة تاريخ هيرودوتس. ولدى عودته إلى إنكلترا سنة 1946 ابتعد عن مرحلة ما قبل التاريخ التي انكب على دراستها في سنوات سنة 1930. ووجد نفسه مشدوداً إلى عصور

أخرى منها عصر الإمبراطورية الأخيمينية التي كانت بلاد النهرين جزءاً منها من القرن السادس حتى القرن الرابع ق.م. تلك المرحلة التي عاشها هيرودوتس ووصفها في تاريخه وكان هدفه من ذلك ـ وقد ذكر ذلك منذ السطور الأولى من تاريخه ـ هو أن يفهم لماذا لا يكف الشرق (الفرس) والغرب (اليونان) عن الحرب منذ زمن طويل. وقد تركز اهتمام ماكس مالوان على امبراطورية آشور أكثر مما تركز على إمبراطورية فورش لأنها هي التي نقلت تراث سومر إلى العالم القديم.

وعندما وصل ذاك العالم في الآثار سنة 1949 وقف نشاطه أولاً على قصر آشورنزيربال الثاني الذي صحبنا مزاحم محمود لزيارة قاعة العرش فيه. وفي سنة 1951 وجد المسلة التي يروي عليها آشورنزيربال قصة مآثره العسكرية ويصف المأدبة التدشينية التي أقيمت في القصر الشمالي الشرقي، بحضور 67574 مدعوًا، كما يقول. وفيه أيضاً واحدة من مجموعات العاج الفخمة التي قدمها له أتباعه عربون ولاء. شهرت هذه العاجيات أبحاث مالوان إلى درجة أنها أصبحت من رموزه.

وفي سنة 1952 شغل مالوان، في القصر الشمالي الشرقي، بتنظيف بئر لم ينتهِ لابارد من إفراغها تماماً. وفجأة سمعت أغاثا كريستي العمال يصيحون بحماسة: «وجدنا سيدة في البئر! سيدة في البئر!».

وتخبر الروائية أن العمال حملوا كتلة من الوحل في كيس، وكان لها حظ تنظيف الوحل في أحد السطول، وظهرت حينذاك صورة سيدة محفورة في العاج المطعم بالذهب والعقيق الأحمر واللازورد. إنها موناليزا نمرود. وظهرت معها لوحتان توأمتان تمثلان نوبياً يصرعه أسد. الأولى في المتحف البريطاني، كما تفرض القسمة، والأخرى، بحكم النهب، اختفت من متحف بغداد في نيسان/ إبريل سنة 2003.

ماكس مالوان هو حقاً وريث لابارد، ووريث هرمزد رسّام أيضاً عندما يكتشف في بلاوة باباً جديداً مع سجلات من البرونز عند مدخل قصر آشورنزيربال الثاني، لكنه حُطّم في نيسان/ إبريل سنة 2003 عند نهب متحف الموصل.

عين مزاحم في نمرود سنة 1985، وعندما قرأ ملاحظات مالوان، فكر بأنه ربما لا يزال هناك أشياء غير مكتشفة في قصر آشورنزيربال الثاني. وفي العاشر من نيسان/ إبريل سنة 1988 لاحظ وراء قاعة العرش، أن بلاط الغرفة التحت ـ أرضية، التي دعيت «م.م». تكريماً لماكس مالوان الذي اكتشف فيها العاجيات، تظهر فيه بعض النتوءات وعدم الاتساق، انتزع بعض القرميدات التي تشكل البلاط وللحال ظهر رأس قبة سرداب متجه شمالاً بجنوب، ولم يلبث أن وجد المدخل وانكشفت له غرفة تحت الأرض: وفي 20 نيسان وصل مزاحم أمام باب مطوق

بآجرات تحميها مسلة من رخام، عليها هذه الكتابة: آشورنزيربال الثاني. نظُف المدخل، فوجد سرداباً مليئاً بالركام، طلب رفع الركام، وحدث الاكتشاف الأول في الخامس عشر من أيار/ مايو.

في ناووس من حجر، هيكل عظمي لامرأة ممددة على ظهرها ورأسها نحو الشمال. في عنقها عقد وفي أذنيها قرطان من ذهب جميعها مطعمة بالعقيق واليشب واللازورد. خواتمها وأساورها من الذهب المصمت. ترتدي عدة كتفيات، رأسها يستند إلى قصعة من فضة منحوتة على شكل نجمية، مزودة بهدايا خاصة بمملكة الأموات. إنها لا شك مقرّبة من العائلة المالكة بالرغم من أن اسمها لا يزال مجهولاً. قام مزاحم محمود، في الثالثة والأربعين من العمر، بأعظم اكتشاف في حياته، لكنه لم يتوقف هنا، بل تابع أعماله التنقيبية نحو الغرب. وعندما توقف في كانون الأول/ديسمبر سنة 1988 كان قد تقدم مئة متر في هذا الاتجاه واكتشف تحت غرفة أخرى، من شقق خاصة، قبة جديدة من الأجر عليها بقايا خمسة أوانٍ فخارية من تراب مشوي.

وعندما استأنف أعماله، في آذار/مارس سنة 1989، عثر على بئر مربعة الشكل عمقها ثلاثة أمتار تقريباً، رفعت منها الأنقاض. ووصل مزاحم عند ذاك إلى باب مقفل بست وعشرين آجرة. وراءه غرفة يضطر الإنسان إلى دخولها مقرفصاً. وهي مليئة

بالأواني الفخارية والجرار وقناديل الزيت وزجاجيات وألواح من طين على أحدها هذه الكتابة: «هنا ترقد الملكة إيابا وابنتها عتليا».

ويلي ذلك لعنة: «الويل لمن يلمس أجسادنا! الويل لمن يسرق حلانا! يموت مريضاً. ولا يذهب إلى الجنة!».

باب مزدوج يقفل مدخل القبر ينتزعه مزاحم من مكانه دون أدنى تردد أو انفعال، فيغمر نور النهار، لأول مرة، منذ ألفين وسبعمائة سنة، غرفة جنائزية مربعة الشكل (3 م × 3 م). القبة من آجر مشوي. وظهر إلى اليمين ناووس من الحجارة الرملية البيضاء تتمدد فيه إيابا وعتليا زوجة وابنة الملك العظيم تغلا تفلا سر الثالث الذي ضم إلى ملكه بابل ودمشق وفلسطين عند منعطف القرن الثامن ق.م. المشهد لا يكاد يُصدَّق: إيابا مغطاة بالذهب في حين أن عتليا تتدلى منها العقود والأساور والخواتم. وهما محاطتان بأوان مطبخية من ذهب وأوان من رخام أبيض منحوت على الطريقتين المصرية والفينيقية، كاد مزاحم أن يُغشى عليه. القبر، اليوم، فارغ؛ ولكنه عندما عاد بصحبة ميسي وميخيل وتوماس، جحظت أعين هؤلاء الجنود وكأن الكنز لا يزال هناك.

بدا الاضطراب والحيرة على ميسي وتوماس واستدارا بطريقة آلية ليريا ما إذا كان آل علي بابا يقتحمون المكان.

وفي ربيع 1989 لم يكن عند مزاحم محمود هذا الوسواس

لأن شرطة صدام كانت تسهر على نمرود كما في كل مكان في العراق. فيتابع أبحاثه ويكتشف في غرفة مجاورة قبة تشبه سابقاتها. ينظف النفق، يجتاز باب السرادب فيجد ناووساً فخماً من الحجر الرملي ولكنه فارغ، مرّ لصوص من هنا منذ القدم. لكن شيئاً ما فاجأهم لأنه لم يتسنّ لهم أن ينقضوا على ثلاثة نواويس أخرى من البرونز تحتوي على بقايا سبعة عشر شخصاً. وظهر في هذا الركام تاج ذهب محفور على شكل أوراق الكرمة والرُّمان، عليه صورة مَلَك الموت، يزن كيلوغراماً، تؤكد الكتابة أنه يخص مُخَنْساة نينوى، ابنة حاكم القصر، ملكة القصر، زوجة الملك آشورنزيربال الثاني! وإلى جانبها حلى لا عديد لها وتاج آخر مزين بست وتسعين قطعة على شكل وردة.

إن ما اكتشفه مزاحم محمود يفوق الإدراك: أكثر من ستمائة حلية وأشياء ثمينة تشكل كنز «ملوك الكون»، مدفوناً في قلب القصر الإمبراطوري، وإذا كان منشأ الذهب من مصر العليا والأناضول فإن الفيروز وجد في خراسان في إيران، واللازورد استخرج من مناجم بدخشان في أفغانستان، عند حدود الهند والصين. أما أنماطها فهي آشورية وفينيقية أيضاً ومصرية، كانت نمرود التي يحرسها اليوم ميسي وميغيل وتوماس، مركز العالم القديم عندما لم تكن آثينا بعد سوى قلعة يسيطر عليها أراخنة (حكام). ومصر قد بدأ نجمها بالأفول.

مزاحم محمود في طريقه إلى الانضمام إلى لايارد ومالوان في سفر خلود علماء الآشوريات. لكن صدام الذي كان يستعد لغزو الكويت، قرر أن يحافظ على سرية الخبر. نقل كنز نمرود إلى بغداد وتوارى، بعد قليل، في خزائن المصرف المركزي. ولم يبقَ لمزاحم إلا الصور التي التقطها عند الاكتشاف ليقتنع بأن الاكتشاف قد حدث. إن حرب الخليج سنة 1991 والعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة أغرقت العراق في الفقر. وللحصول على المال من أسهل السبل، سيطر آل علي بابا الأولون على المراكز الأثرية. وظل وجود كنز نمرود، خلال عشر سنوات، من أسرار دولة العراق، في حين كان مزاحم يضاعف مساعيه لدى الحكومة ليعلن الاكتشاف على الأوساط العلمية. وأخيراً، في شهر آذار/ مارس سنة 2002 طلب من عالم الآثار أن يزور لندن بدعوة من المتحف البريطاني. وهناك عرض مجموعة صور الكنز على جون كورتيس، مدير العاديات الشرق أوسطية، فصاح مندهشاً: «إن كنز نمرود هو اكتشاف أثري تضاهي أهميته اكتشاف كنز توت عنخ آمون!».

وللأسف ليس في حوزة مزاحم أي قطعة ليعرضها لأن الكنز ظل محجوزاً في خزنة المصرف المركزي في بغداد.

الفصل السادس

شاي ام قهوة؟

استمرت أعمال رفع الأنقاض من الغرف المحصنة في مصرف العراق المركزي، في شارع الرشيد، أكثر من شهر، من نهاية نيسان/ إبريل إلى أوائل حزيران/ يونيو سنة 2003. أصيب البناء الضخم، في آذار/ مارس، بصواريخ موجهة فانهار جزئياً واشتعلت النيران في طبقاته. نهبت القاعات العامة والصناديق في مطلع نيسان/ إبريل وشوهد آلاف الناس يغادرون المبنى وجيوبهم محشوة بالأوراق النقدية الجديدة المرسوم عليها صورة صدام حسين. وكان لتدفق النقد وخاصة الأوراق من فئة 250 دينار أن أسرع في تدهور العملة العراقية. ويبقى أن نعرف ما حدث لمستودعات الذهب والممتلكات القيمة التي كانت مودعة في قاعات تحت الأرض، في المصرف حيث توجد الخزائن، وكانت إمكانية تضررها قليلة لأن أنظمة الحماية كانت عصرية ومتطورة جدًا. على أنه يخشى أن يكون صدام حسين، الذي أجبر ولداه إدارة المصرف على تسليمهم مئات الملايين من الدولارات، أن

يكون قد استولى على جزء من هذه الثروات قبل الحرب.

ولكن ليس شيء من ذلك. ففي نهاية حزيران، دعيت بعثة من الأونيسكو لزيارة أقبية المصرف يتقدمها منير بوشناقي. شاهدت دومينيك كولون، من المتحف البريطاني، أن أرض القاعات مغمورة بمياه دجلة الذي يجري على مقربة من البناء، ووجدت هناك المرممين العراقيين يعملون على تنظيف كنوز قبور ملوك آور وكنز ملكات نمرود. إنها ملطخة بالوحول. ولكن ما صنع من معدن وحجارة لم يصب بأي أذىً. وفي الثاني من تموز/يوليو قدم أعضاء فريق التنسيق في الوكالة الدولية المشتركة لتسلم قسم من الذهب والحلى التي اكتشفها مزاحم محمود دون أن يُدعى للتعريف بها. أوكِلت هذه المهمة لدوني جورج الذي يعرفها جيداً لأنه هو الذي صوّرها على أثر اكتشافها بأجهزة دقيقة تبرعت بها اليابان: حُمِّلت المجموعة في عربة مصفحة، عبرت دجلة تحت حراسة أميركية وإيطالية لتنقل إلى متحف أو إلى قاعة صغيرة من صالات العرض الآشورية لتجهز وتصبح صالحة للعرض، جرى وضعها على عجل: تيجان، زينة، حلي، أوانٍ وضعت في واجهات مع معلومات تذكر فقط الوزن والأبعاد لكل قطعة من القطع.

يقرأ الإنسان العادي، العديم الخبرة بهذه الأمور مثلاً: «تاج، قطر: 24 سم، وزن 1000.3 غ؛ ارتفاع: 16 سم». أو

أيضاً: «تاج، قطر 18 سم، وزن 216 غ؛ ارتفاع: 6 سم، 96 وريدة».

ولن يعرف أكثر من موضوع تيجان مُخَنْساة نينوى، التي لم يذكر اسمها ولا العصر الذي نقشت فيه، والأمر نفسه يطبق على سائر القطع التي ستعرض. لا نصّ ولا لوحة تصرح لنا ممّا تتألف هذه الأشياء، ما هو نمرود وفي أي ظروف اكتشفت.

وهكذا، في اليوم التالي، الثالث من تموز/يوليو، لم يوفّر كمستند للصحافيين والدبلوماسيين، الذين هم بأكثريتهم لا شأن لهم بهذه المادة الأثرية، سوى نص من سبعة وعشرين سطراً طبعت بالعربية والإنكليزية على ورق صقيل مقوّى، وملىء بالأخطاء المطبعية الإملائية. وهو، إلى ذلك، موقع بيد بياترو كوردوني، مستشار التحالف لدى «وزارة الثقافة العراقية».

هذه النشرة التي تحمل عنوان «نمرود، إرث الحضارة الآشورية» تعلمنا أن «كنز نمرود» اكتشفه فريق من علماء الآثار بقيادة مزاحم محمود، في موقع نمرود، في «أربعة قبور ملكية»[1]، قبور ملكات وأميرات البلاط الملكي الآشوري، في قصر آشورنزيربال الثاني في نمرود. ويذكر «بياترو كوردوني» صاحب هذا النص البارع، بشكل عابر، أن الكنز كان مودعاً

(1) «Nimrud, the Heritage of the Assyrian Civilisation». 3/7/2003.

في خزنة «المصرف» منذ سنة 1990 دون أن نعرف أي مصرف ولا إلى متى. ويعطي أخيراً تفسيراً لهذا الإعلان الغريب ولا يتردد في كتابة هذا النص الطنان الرنان: «هذا المعرض الاستثنائي هو مناسبة للاحتفال بظهور هذه الأشياء الرائعة في العالم من جديد».

وللعجب، لم يذكر أي تعليق، في هذا الفهرس، عن إناء أوروك، المعروض هو أيضاً، المهشم، والمقلوب في مؤخرة واجهة موضوعة عند مدخل قاعة تعرض فيها نمرود. هل المعرض لإظهار الأشياء المسروقة والمستعادة؟. ولكن إناء أوروك يستحق أن يمثل وسط أشياء أخرى، مثل عاجيات نمرود وقطع أخرى كثيرة أعيدت إلى المتحف.

استدعي رجال الصحافة للمجيء في الساعة التاسعة، وأجاز لهم النقيب دوركين، النسيب المعاون للعقيد بوغدانس، الدخول إلى القاعات الآشورية حيث يكون في استقبالهم العسكريون الأميركيون والدرك والدبلوماسيون. ويستقبل پياترو كوردوني والعقيد ماتيو بوغدانس، هناك، پول بريمر الثالث الحاكم الإداري للعراق المعين من قبل واشنطن. اصطحب بريمر إلى أمام تاج مخنساة نينوى فينذهل أمامه فيما يمطره المصورون بأضوائهم الومّاضة. وعلى مقربة من هناك يقف مزاحم محمود الرجل الذي اكتشف الكنز الذي يتأمله. والأمر المستغرب أن

كوردوني لم يقدمه لبريمر. ويمضي كل شيء كما لو أنه ليس لكنز نمرود لا مكتشف ولا تاريخ. الشيء الوحيد الذي بدا ذا أهمية هو ذاك الذهب الذي يتألق تحت عدسات المصورين. والشيء المؤكد أنّه لم يستثنَ شيء من ذاكرة العراق! خمّن بريمر ثمن صدام بخمسة وعشرين مليون دولار (فَبِمَ يخمّن ذهب نمرود؟). التفت پياترو كوردوني وماتيو بوغدانس، بعد ذلك، نحو وسائل الإعلام. وعند ذلك اتّضحت الأسباب الحقيقية لهذا المعرض.

ويشرح كوردوني لرجال الصحافة قائلاً: «إنه يجب وضع حد للإشاعات الاعتباطية التي انتشرت في بغداد بخصوص هذا الكنز الذي ظن البعض أنه اختفى»[1].

قصد مشكور، ولكن وراء كنز نمرود الذي لم يسرق، هذا المعرض هو، كما يشهد على ذلك إناء أوروك، قبل كل شيء، رمز: رمز عملية إعادة التحف المسروقة من متحف بغداد، هذه العملية التي تولّى أمرها فريق بوغدانس منذ 20 نيسان/ إبريل المنصرم.

هذا صحيح إلى حد أنه، في القاعة المجاورة، قاعة العرض الكبرى التي تحمل جدرانها سلسلة من النقوش المكتشفة

---

(1) نقلاً عن جريدة «لوموند»، وكالة الصحافة الفرنسية، وكالة الصحافة، رويترز.

في قصور سرجون الثاني في خورساباد، يقوم العقيد بوغدانوس بجردة للأشياء المستعادة: عشرة على اثنين وأربعين سرقت من صالات العرض وثلاثة آلاف من المستودعات. ويتقدم بالشكر إلى الأئمة على ذلك: لقد عرفوا كيف يخاطبون ضمائر المؤمنين الحقيقيين الذي أعادوا فوراً التحف التي أخذوها، أخذوها بنية حسنة هي أن يحافظوا عليها. ويختم كوردوني المشهد بتقديم احترام مدوٍّ لتفاني السيدة نوادا المتولّي قائلاً:

لقد فطنت المديرة العامة لعاديات المتحف، قبل الحرب بعدة أيام، أن تضع 8000 قطعة قيمة من المجموعة في 179 حقيبة من الزنك وأودعتها في قاعة تحت الأرض، ثم بمعاونة رجل ذي ثقة، سدّت باب القاعة فلم يكتشفها اللصوص. لقد توسلت إليها منذ بداية حزيران/يونيو، فأخبرتني بكل شيء (...). لقد رأيتموها تحمل أشياءها العزيزة بين ذراعيها وتغمرها بالقبلات. إنه لشيء بالغ التأثير.

إنه ركام من الأشياء، المخبأة، الموجودة، المسروقة، المستعادة، المنسية، التائهة، هبطت على رجال الصحافة الذين وقفوا منذهلين (كما وقف كاتب هذه السطور الذي كان موجوداً هناك) بسحر الكنز الذي عرض عليهم. ولكن، أيمكن أن يكون قد حدث، في الواقع، شيء خطير على مدى شهر نيسان؟. أيمكن أن تكون حفنة من اللصوص قد اندست بين جماهير الناس

الشرفاء الحَسَني النوايا والأمناء المهتمين بوضع ما يمكن وضعه في الملاجيء؟

يفضل بياترو كوردوني أن يحاذر كل تصرّف أو مظهر ملائكي:

> *لا أريد أن أقلل من شأن الخسائر والسرقات التي حدثت فعلاً (. . .). لكن كان حجم الكارثة مبالغاً فيه جدًا: من أصل 170.000 قطعة في المتحف لا تزال هنا 2500 قطعة مفقودة، ولكنها في الأساس قطع للدراسة لم تكن معروضة بل موضوعة في تصرف الباحثين، والكثير من الأختام الملكية خاصة أصبحت في أيدي هواة جمع الآثار في شمال أميركا وأوروبا.*

والأرجح أنها لن تعود أبداً، أعطى بياترو كوردوني في هذا الثالث من تموز/يوليو، عدداً مدوَّراً من المهم ألا ينساه: 2500 قطعة، أي، بشكل إجمالي، التقييم الذي أعطته لجنة الأونيسكو في نهاية شهر أيار/مايو. ويستشهد أيضاً بالعدد الذي أصبح خيالاً 170.000 قطعة تشكل بالنسبة إليه، أساس مجموعات متحف بغداد، ونذكر أن أمين نبهال هو أول من أعطى هذا الرقم في 13 نيسان/إبريل سنة 2003. ويعرف الجميع مذ ذاك أنه، بسبب الودائع المختلفة، كما في متحف الموصل التي حدثنا عنها طويلاً المدير منهل جبر، أنه ليس باستطاعة أحد أن يعرف كم من القطع كانت محفوظة في 10 نيسان/إبريل، في متحف بغداد.

أقفل المعرض أبوابه عند الظهر، هل حقق هدفه؟ هل استطاع أن يطمئن طائفة العلماء، الحكومة الأميركية بقدر الإمكان من خطايا نيسان/ إبريل؟ قد يصدق الظن. في حين أن العقيد بوغدانس وفريقه نقلتهم مفرزة من الدرك الإيطالي يقودها المقدم جيوزِيّة مارسغليا. على الإيطاليين أن يتابعوا، من الآن فصاعداً مهمة الجدولة والاستعادة بالتعاون مع پياترو كوردوني وليس مع حكومة الولايات المتحدة.

وفي الغداة غادر بغداد مزاحم محمود ومنهل جبر ودوني جورج وأمناء آخرون للذهاب إلى لندن للمشاركة في اللقاء التاسع والأربعين لعلم الآثار الآشورية العالمي الذي ينعقد في متحف بريطانيا. وكان في استقبالهم نيل ماك غريغور، جون كورتيس ودومينيك كولون من قسم عاديات الشرق الأدنى. هذه اللقاءات تخصص عادة للعلماء ولأصحاب الاختصاص. لكن هذه السنة كان جدول الأعمال محكوماً بأحداث العراق، وحدثت في 11 تموز/ يوليو مفاجأة، وهي أن المقدم بوغدانس، الذي اتهمه نيل ماك غريغور مع منير بوشناقي بالنزوع إلى «تشويه» الحقيقة، في حين كان يؤكد في 30 نيسان/ إبريل، أن 25 قطعة فقط اختفت من المتحف، جاء يتحدث عن عمله وعن الوضع العملي وعن استقصاءاته.

والإنسان الذي يتكلم هناك لا يفعل ذلك أمام محكمة، غير أن مجمع العلماء الذي يصغي إليه ليس جماعة مبتدئين. إن ما

يسمعونه مختلف تماماً عما قيل. منذ ثمانية أيام، أمام الصحافة أثناء معرض نمرود في متحف بغداد. يذكُر المقدم بوغدانس، بعد أن قدمه نيل ماك غريغور كممثل لحكومة الولايات المتحدة، في إطار المهمة التي أسندت إليه والظروف التي بدأ فيها عمله. فبعد أن قيّم الخسائر التي وقعت في حالات العرض العامة، قدم قائمة بثلاثين أثراً لم يعثر لها على أثر حتى تاريخه، وهي:

1 ـ سيدة أوروك.

2 ـ قاعدة تمثال باسْتكي.

3 ـ اللبوة التي تصرع نوبيّا (عاج من نمرود).

4 ـ ثور من البرونز من تل عبيد.

5 ـ تمثال إنتيمينا من لاغاش.

6 ـ 10: رؤوس من عصر حترا: بوزيدون، آپولون، إيروس، إلاهة جالسة ورأس برونز لأثينا نيكه.

11 ـ 19: كمية من ألواح مسمارية.

20 ـ 21: بلاطات مدفنية من العصر الإسلامي.

23 ـ 24: قطعتان مرصعتان.

25 ـ تمثال سومري.

26 ـ غطاء علبة رخامية مصدرها حترا.

27 ـ تزيين من الجص.

28 ـ موقد جمر برونزي من نمرود.

29 ـ متكأ كرسي من العاج منشأها نمرود.

30 ـ نصب حدودي.

ثم انتقل إلى المجموعات التي كانت موزعة بين المخازن القديمة والجديدة لمستودعات متحف بغداد.

وأعلن أن 3138 قطعة قد اختفت من المخازن القديمة وتوقف الجدول عند سفره من بغداد في 8 تموز/يوليو ولم يكتمل.

يجب توقع «ازدياد الرقم»[1].

في المخازن الجديدة 4795 ختماً أسطوانياً، 4997 قطعة مختلفة (صنانير، دبابيس، لآلىء..) و 595 آجرّة وقطع آجر اختفت. مجموعها: 30 + 3138 + 4997 + 595 = 13555 قطعة مسروقة من متحف بغداد وحده ما بين 10 و 12 نيسان/إبريل سنة 2003، ويجب توقع أن يزداد العدد لأن الجدول لم يكتمل بعد، كما يقول المقدم بوغدانس نفسه.

يطرح من هذا العدد 2935 قطعة وجدت. فيبقى «أكثر بقليل من 10500 قطعة مفقودة».

---

(1) «جدول للمقدم م. بوغدانس حول الوضع في متحف العراق». المرجع ذاته ص2.

وربما يقول پوارو هنا إنه من الضروري أن نعرف ماذا حدث ما بين الخميس الواقع فيه الثالث من تموز/يوليو سنة 2003 عندما يعد پياترو كوردوني، في متحف بغداد 2500 قطعة مسروقة في نيسان/إبريل والأربعاء 8 عندما عد المقدم بوغدانس 10500. مع العلم أن الخميس بعد الظهر والجمعة تعطل فيهما الدوائر الرسمية في بغداد. والموظفون الذين يعملون ثماني ساعات في اليوم لم يكن أمامهم سوى اثنتين وثلاثين ساعة لمتابعة الجدول. ما يعني أنهم نجحوا في تحديد 10500 قطعة مفقودة في أربعة أيام أي أكثر من 328 قطعة في الساعة! إنه عمل يتطلب قوة خارقة. ومهما يكن فإنه كلما مر الوقت ازداد عدد القطع المسروقة، عد بوغدانس في آخر نيسان/إبريل 25 قطعة وفي بداية تموز/يوليو 2500 وفي 11 تموز/يوليو 10500!

ومهما كانت طاقة عمل الموظفين والأمناء في متحف بغداد، فلا يبدو أن المعلومات التي نقلها المقدم بوغدانس إلى علماء الآشوريات المجتمعين في متحف لندن قد نقلت إلى پياترو كوردوني الذي كان لا يزال يتحدث، في 31 تموز/يوليو، عن «3400 قطعة مسروقة، عند نهب متحف بغداد بعد سقوط صدام حسين في نيسان»[1]، إلا إذا كانت، طبعاً، قد أعيدت 7100

---

(1) ذكرته وكالة الصحافة الفرنسية في 31/ 7/ 2003.

قطعة في ثلاثة أسابيع أي بخمسة عشر يوم عمل ما يساوي 120 ساعة فيكون قد أعيدت قطعة واحدة في كل دقيقة.. ففي هذه الوتيرة تعتبر إعادة بناء العراق لعبة أولاد، هذا ولا سيما أنه توقف كل جدول في بغداد بعد رحيل بوغدانس في 8 تموز/يوليو «بسبب الحر». إنه أفضل من جدول على طريقة بريڤير! عندما «يجد» بوغدانس 8000 قطعة في أربعة أيام وكوردوني 900 في ثلاثة أسابيع! فهما، طبعاً، لا يخاطبان جمهوراً ما بعينه من المستمعين. ومهما يكن من أمر، فإن النغمة قد تغيّرت في شهر تموز/يوليو سنة 2003. يتحدث المقدم بوغدانس، في الحادي عشر منه، في المتحف البريطاني عن تقنيتين من الاستعادة وضعهما في العمل عند إقامته في بغداد هما: العفو العام والردع.

يقضي برنامج «العفو العام» عن التوقف عن ملاحقة من يعيد قطعة مسروقة أو يدلي بمعلومات كافية لاستعادة المسروقات. ويصف في شهر تشرين الأول/ أكتوبر هذه التقنية بالتفصيل.

> عندما يقول لي مخبر: «إذا كشفت لك وجود شيء ما واستردته، أتعلني بأنك لن تلاحق أحداً ولن يترتب على ذلك أي مشكلة؟».
>
> أجيب: «نعم، أعدك».
>
> لقد تصرفنا دائماً هكذا. إذا خُيِّرت ما بين الحصول على

معلومة أو عدمه، وإذا توجب، للحصول عليها، أن أعد بعدم توقيف الشخص، طالما أنه لا يوجد شيء آخر، مثل صندوقين من قذائف الآر.بي.جي. كنت دائماً أعطي وعدي. هذا بالضبط هو نوع المخبرين الذين تجدهم في نيويورك. هو ذاته تماماً. هناك تجار مخدرات متنافسون، كأي تجار آخرين وهناك أشخاص مستعدون لإعطاء معلومات عن بعض أفراد عائلاتهم، لأنهم يرغبون في أن يروهم يتخلون عن هذه التجارة، فيعتبرونهم خطرين جدًّا، وثمة أناس مخلصون يريدون أن ينقذوا حيّهم من المخدرات. تجد أمثال هؤلاء في بغداد، سواء بسواء[1].

أعطت هذه التقنية نتائج قيمة! لقد أعيد حتى تاريخ 11 تموز/يوليو 1334 قطعة من أصل 2935 في إطار برنامج العفو.

ولكن هناك تقنية ثالثة لم يتحدث عنها المقدم بوغدانس في تموز/يوليو: هي المكافأة، أي شراء القطع المسروقة بطريقة أو بأخرى. وقد بلغ به الأمر، في شهر تشرين الأول/أكتوبر، أن تنكّر لاستعمالها.

الشراء أو الفدية هو آخر ما نلجأ إليه من حلول، لقد أظهرت هذه الطريقة عدم فعاليتها مرات عديدة، إلا عند عدم وجود البديل، إذا دفعت للناس تكون أوجدت أنت بنفسك سوقاً

(1) «حديث مع م. بوغدانس» مجلة «أركيولوجي، عدد 1 (مجلد 57، كانون الثاني - شباط/يناير - فبراير 2004.

سوداء. هذا ما رأيناه في بغداد. كان الناس يحملون الأشياء المسلوبة إلى المواقع الأثرية ويطلبون ثمنها.

«شكراً جزيلاً، نقيّم عملك: لكن العملة الوحيدة التي ستقبضها هي أنك لن تُوَقَّف، حسناً، إلى اللقاء».

لقد حدث ذلك غالباً. لقد عرضت علينا أحياناً قطعاً مزوّرة عرفت دمشق بنسخها المزورة، تلقينا الكثير من النسخ الدمشقية، ومع ذلك لقد أخذناها لسحبها من السوق.

«شكراً جزيلاً، افرنقعوا!».

وكانت هذه بغالبيتها العظمى لوحات مسمارية، كان دوني جورج يقوم بفحصها، وعلى مسافة متر من الطاولة كان يقول: «فتّش عن دمشق»، لكنه كان عاجزاً عن أن يتوصل إلى معرفة المشغل الذي جاءت منه[1].

لدى زيارتنا إلى حجرة البدائع والطرائف في 25 حزيران/ يونيو 2003 وجدنا ورقة دفتر مدرسي كتب عليها أن عبد الجليل خليل وشريكه حبيب سلمان محمد ينتظران «مكافأتهما». هذا المستند لم يكن سوى دليل. ومع ذلك لقد انطلقت من فم المقدم بوغدانس، في المتحف البريطاني، هذه الجملة: «استُرِدّ إناء أوروك في 11 حزيران/يونيو، بعد أن فاوض النقيب دوركين أحد الوسطاء. كان قطعاً ولكن لم يكن فيه أي كِسْرٍ جديد»[2].

(1) المصدر نفسه.

(2) «جدول للمقدم بغدانوس حول الوضع في متحف العراق» مرجع سابق.

استخدم بغدانوس كلمة وسيط ولم يستخدم كلمة مخبر. والوسيط هو من يتدخل بين اثنين يرغبان في التفاوض دون أن يلتقيا. وحصيلة هذا النوع من التفاوض هو عقد صفقة، هل حدث، في المفاوضة التي أدت إلى استرداد إناء أوروك، إحدى القطع الرئيسية المسروقة في نيسان/إبريل، عملية دفع مبلغ من المال؟ لم يقل م. بوغدانس ذلك بشكل صريح أمام علماء الأشوريات وإدارة المتحف البريطاني في 30 تموز/يوليو، عندما أعلن أن الولايات المتحدة ستكون أول من يستقبل كنوز نمرود، لكن بياترو كوردوني يعلن أن المفاوضات التي أدارها النقيب دوركين مع وسيط آلت إلى دفع مبلغ قيِّم من المال. وصرح للصحفيين أن إناء أوروك «وجده»، في منتصف حزيران/يونيو، ثلاثة شبان «دفعنا لهم مكافأة ليعيدوا القطعة»[1].

تغيير الحديث أمر حساس. ونتذكر أنه في 12 حزيران/يونيو أن بياترو كوردوني إياه أكّد: أعاد هذه القطعة، على المقعد الخلفي لسيارة، ثلاثة مواطنين عراقيين تأكدوا من أهميتها بالنسبة إلى تراث البلاد الثقافي»[2].

عن أي مدفوعات يتحدث بياترو كوردوني؟ هل ما دُفع كان للفتيان الثلاثة؟ أم للوسيط الذي فاوضه النقيب دوركين؟ أم سوى ذلك؟

(1) نقلاً عن وكالة الصحافة الفرنسية 31/ 7/ 2003

(2) المصدر نفسه.

ومهما يكن من أمر فنحن أمام مخطط متكامل: يبدأ النقيب دوركين، بواسطة وسيط، مفاوضات تؤدي إلى دفع مبلغ من المال عند تسليم إناء أووروك من قبل ثلاثة شبان عراقيين الذين ربما كانوا هم بدورهم وسطاء أيضاً.

هل هو، لعمري، حل «آخر المطاف»؟

ويعترف المقدم بوغدانس، في أيلول/ سبتمبر سنة 2003 أمام البنتاغون، بحصول «مفاوضات» لإعادة إناء أوروك وعدد من التحف ذات «قيمة قصوى»، ويضع هذه المفاوضات في إطار سياسة العفو العام، لكنه لا يذكر ما دفعه كوردوني صراحة في 30 تموز/ يوليو في بغداد.

ويروي بوغدانس واصفاً «برنامج العفو العام»:

ليست القصة قصة فرد يمثل أمام أبواب المتحف ويصرح: «عندي صُرَّة لكم».

بل بالأحرى يقول: «إذا كان في حوزة صديق لصديقي قطعة مسروقة من المتحف. ماذا يحدث؟»

ـ حسناً! لماذا لا نلتقي صديقك؟ نتناول كوب شاي ونتناقش؟[1]*».*

---

(1) رواه بريان نولتون: «استعادة كنوز العراق المسروقة». جريدة إنترناشيونال هيرالد تريبيون، 11/ 9/ 2003.

هذا النوع من «حفلة الشاي» الذي أدّى إلى صفقة أتاحت استعادة إناء أورروك مقابل كمية من المال، حدث أيضاً في نيويورك حيث يعترف بوغدانس بأنه قام «بمفاوضات» نتج عنها استعادة لوحة أكّادية، ولو كان پوارو حاضراً لكان سأل.

لكن ماذا قدم في هذه المناسبة؟ شاي؟

استهلكت بعض أقداح الشاي بالرغم من أن الويسكي مباحة في بغداد، ليس فقط بين الأميركيين والمخبرين بل أيضاً بين الطليان والباعة.

ولدى ذكر پيانرو كوردوني، في 30 تموز/يوليو، قيمة ما دفع للفتيان الذين أعادوا إناء أورروك، لم يبعث، بعمله هذا، رسالة إلى الرأي العام ولكن أيضاً لجميع الذين يملكون عاديات ـ من سارقين ومهربين ومخبئين وتائهين ـ تعود إلى المجموعات القومية في العراق. ولا يفوتنا أن نتساءل عن ماهية «نفقات المستفيدين. كوردوني لا يذكر ذلك، ولكن لكل إنسان الحق في أن يتخيل ما يريد: نفقات صغيرة، أجرة المخبر، مكافأة أم فدية؟

لقد فتح پيانرو كوردوني، في 30 تموز/يوليو، قصداً أم عفواً، «سوقاً سوداء» بالمعنى الذي عناه بوغدانس في تصريحاته في شهر تشرين الأول/ أكتوبر[1]. ونتساءل عما إذا كان المقدم

(1) «حديث مع م. بغدانوس»، مرجع سابق.

قد ذكر هذا التحديد بمحض صدفة. لأنه، في الوقت الذي كان كوردوني يبعث فيه رسالته، كان تاجر فنون إيطالي يتمتع بوسائل مالية ضخمة وبحماية مكاتب الشرطة التابعة للاحتلال الأميركي، كان يلعب لعبة الوسطاء ويفتدي كميات ضخمة من الأختام الأسطوانية المدموغة بحرفي م.ب. (متحف بغداد). في السوق الخفية في بغداد. وهكذا أعيدت خمسة آلاف من الأختام الأسطوانية من جميع عصور بلاد ما بين النهرين، وضمت إلى موجودات متحف بغداد.

إنها سوق رائجة. لقد رُصِد في السوق الشرعية ختم أسطواني من اللازورد النادر الوجود منشأه مدينة كيش السومرية شمالي أوروك، وقد بيع منذ عدة سنوات بمبلغ 150.000 دولار أميركي، في المزايدات العلنية. إنه رقم قياسي. وفي مقابل ذلك، في أسفل سلم الأسعار، بيع ختم أسطواني عادي يعود إلى المرحلة الآشورية الجديدة، بمبلغ 350 ليرة استرلينية في محلات كريستي في شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 2003.

وحتى لو وضعت الأسعار في أسفل السلم. فإنه يجري التفاوض في بغداد على أسعار بملايين الدولارات، في الحد الأدنى.

وبالإضافة إلى ذلك، لكي تتمكن هذه السوق من العمل، يجب أن يكون بمقابل شارٍ أو شراة عدد مقبول من الباعة بالجملة

وينصف الجملة، وإذا كان العارضون بالمئات تكون الصفقات صعبة، عديدة وبطيئة التحقيق. وقد يسأل بوارو: كم من الوقت يتطلب احتساء خمسة آلاف قدح شاي؟

الفصل السابع

الأعمال هي الأعمال

ومرة أخرى نحن مدفوعون إلى أن نطرح على أنفسنا السؤال الأبدي: ماذا كان سيفكر پوارو؟

لا شك أنه سيتساءل ما الفائدة من قائمة مثل التي قدمها .م بوغدانس في المتحف البريطاني. إنه يعتريها بعض النواقص من المفيد أن نعود إليها لحظة. نعرف، بالتحديد، أنه ليس من قائمة للأشياء المسروقة في نيسان/إبريل يمكن أن تكون كاملة. وبوغدانس نفسه لم يكف عن تكرار ذلك. وهذا لا يمنع أن نستخدم هذه القائمة كأساس للتحقيقات ولمختلف الأبحاث. يستحيل بدونها أن نعمل أو أن نستعيد أي شيء كان. حتى ولو كانت تفيد لحجب التقصير المشين لحكومة الولايات المتحدة أثناء فوضى نيسان/إبريل، فإن عملية الاستعادة تبقى شيئاً حسناً في حد ذاتها. ونحن نقر بأن لقائمة بوغدانس فضلاً أنها موجودة وأنها أفضل ما وُجد. أيًا تكن عيوبها.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 2003 قام بوغدانس بزيارة إلى مركز الإنتربول في ليون برفقة خليفته في بغداد المقدم جيوزيپه مارسِغْليو، الذي يوجه الأبحاث منذ سفره في تموز/يوليو، فاستقبلهما المفتشان جوانيه وكِنْد منسِّقا حملة التعقب العالمية، الجهاز الخاص المناط به مكافحة التهريب العالمي للتحف الفنية والعاديات، عقدت سلسلة من الاجتماعات في 12 و 13 تشرين الثاني/نوفمبر خصصت للمشاكل التي طرحها نهب الإرث الثقافي للعراق.

لا يسعنا في هذه الظروف إلا زيارة مركز الإنتربول. وهو بناء ذو هندسة مستقبلية حيث استقبلنا الألماني كارل هاينز كِند المسربل باللباس الأخضر من رأسه حتى أخامص قدميه والفرنسي جان - پيار جوانيه وهو رجل عادي جدًّا يجلس مسترخياً، استقبلانا بلطف في مكتب صغير عُلِّق على أحد جدرانه إعلان بالألوان عنوانه:

التحف الفنية الأكثر تطلُّباً

الإنتربول

وتحت الإعلان ست صور فوتوغرافية:

1 - سيدة أوروك.

2 - تمثال من الديوريت لإنتيمينا اللاغاشية.

3 ـ طاولة لعب مرصعة بأصداف مصدرها القبور الملكية في أور.

4 ـ شخص من نحاس منشأه باسْتكي.

5 ـ رجل مع لبوءة ووعل منحوت بالعاج.

6 ـ لبوءة تصرع نوبياً، اكتشفها مالوان في نمرود. الأرقام 1، 4، 5 تحمل عبارة «استعيدت» مطبوعة بحروف حمر.

نجاح خمسين بالمئة: رقم قياسي رائع. كل شيء أعيد في العراق أمام أقداح الشاي.

وجدت سيدة أورورك، حواء أندريه بارو، في الواقع. في شهر أيلول/ سبتمبر بمسعى من الشرطة العراقية الجديدة. بدأ النقيب حمزة صالح، قائد عملية التفتيش بقبض باقة بائع أزهار كان يخبىء سيفين عريضين وراء نبتاته الخضر، فوشى عاشق الأزهار هذا، تحت الضغط، بأحد شركائه الذي أعطاه اسم اللص الثالث. في نهاية الدرب بيت مزارع دفن قناع أورورك في حقله بعد أن وضعه في مستودع لبعض الوقت، قبل ذلك. ووجد الشخص النحاس المجلوب من باسِتْكي والرجل مع اللبوءة والوعل المنحوت في العاج. في ظروف مشابهة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وهكذا فإن إعلان الإنتربول يتجدد يومياً مع القائمة

الموضوعة، في حزيران/ يونيو 2003 لكمية تبلغ 2000 قطعة مسروقة من متحف بغداد، ويستطيع كل إنسان أن يعود إلى هذه القائمة على الإنترنت[1].

اعترف ضيفانا بملء إرادتهما بأن القائمة القصيرة جدًّا التي أرسلتها الأونيسكو لا تعكس الحقيقة لأن الإنتربول يأسف، في هذا المجال لنقص أكيد في المعلومات. لم يبدأ هوائيُّه في بغداد بالعمل إلا في شهر أيلول/ سبتمبر وهو يعمل بشكل سيء ولا يقدم معلومات موثوق بها. ولا تقدم الجمارك ودوائر الشرطة في البلدان المجاورة للعراق معلومات إضافية عن تجارة العاديات وعن عمليات القبض على اللصوص.

لكن أساس معطيات الإنتربول سيزداد حتماً بمناسبة الزيارة التي قام بها العقيد بوغدانس والمقدم مارسغليا إلى ليون حيث سلما المفتشين كِنْد وجوانيه القائمة التي نُقِلت في بداية تموز/ يوليو إلى المتحف البريطاني وهي معلومة مضى عليها أربعة أشهر. وكانت الأرقام هي نفسها: 13500 قطعة مسروقة أعيد منها 4000. وهي أفضل من قائمة الثلاثة آلاف التعيسة التي قدمتها الأونيسكو. ومع ذلك فهذا لا يسعد عملاء الإنتربول.

(1) www. Interpol. int/public/publications/ Works of Art/Default-Fr.asp.

وبالرغم من أن جوانيه وكِنْد تصلهما المعلومات ناقصة فإنهما متخصصان في التهريب العالمي للعاديات وقد كافحا ذلك طويلاً في بلديهما. إن قائمة بوغدانس، التي تقدم إحصاءً جزئياً للأشياء المفقودة في متحف بغداد وحده، لا تفي بحاجتهما. لأن الرهان الحقيقي على الملاحقة الطويلة الأمد التي بدأت، ليس هو ما سرق من المتحف لأنها الشجرة التي تغطي الغابة. لأن المهم حقاً هو العاديات التي لا تحصى والتي لا تزال تختفي من المواقع الأثرية في العراق، ولا ذكر لهذه العاديات على قائمة الحكومة الأميركية التي أبلغها إياها العقيد بوغدانس. ولا عجب في ذلك، لأنه، منذ البداية، وخلافاً لما قامت به مؤسسة فنون الآثار والوثائق من 1943 إلى 1951 فإن مؤهلات فريق التنسيق في الوكالة الدولية المشتركة لسنة 2003 كانت محدودة في المكان كما في الزمان.

واليوم، فالحفريات السرية التي تحدث في العراق هي مصدر تجارة العاديات في مفهوم المفتش جوانيه الذي يعتبر أن هذه الحفريات تجري على مستوى صناعي. كيف سيتمكن الإنتربول ودوائر الشرطة القومية من التصدي لهذه الموجة الغامرة التي ستتدفق على مختلف أسواق العاديات والفن؟ وكيف سيفلح رجال الجمارك بالقيام بمهمتهم؟ لقد تبنت الحكومتان السويسرية والأميركية توجيهات صارمة لتنظيم حركة الاستيراد والتصدير

لعاديات ما بين النهرين: لكن على الصعيد القمعي يشوب هذه الوسائل عيوب كثيرة. فلكي تكون المكافحة فعّالة، يجب أن يكون في حوزة الإنتربول، ليس فقط قائمة كاملة ويومية، ولكن رجال يملكون معلومات تاريخية وفنية وآثارية على مستوى رفيع. فالقطع الأثرية المسروقة من المجموعات القومية يسهل التعرف إليها نسبياً لأن لها نسباً؛ وعلى عكس ذلك فإن ما ينهب من الحفريات الخفية وغير المفهرس في أي مكان يصعب، بل يستحيل، التعرف إليه.

ثم كيف يُميَّز بين الصحيح والمزيف؟ كيف التعرف إلى القطع الأصلية ونبذ النسخ الشامية التي لا يميزها سوى الخبراء من أمثال دوني جورج يوكانا الذي يحددها من النظرة الأولى؟

في طريق عودتنا من بغداد مررنا في عمان حيث احتجزت الجمارك الأردنية كمية من العاديات في المطار. وعرض أمامنا محمود قطيشي مدير الجمارك في المملكة الهاشمية، والاعتزاز يملأ إهابه، أربعاً وعشرين قطعة مختلفة وجدت في حقيبة دبلوماسي لم يشأ أن يذكر اسمه، وهي عبارة عن تماثيل صغيرة، وأختام أسطوانية وألواح جميعها مهرّبة. «بضاعة من سقط المتاع» هذا ما استنتجه فيما بعد، دومينيك كولون من المتحف البريطاني عندما تفحصت صور هذه الأشياء.

الشرطة عاجزة والجمارك عمياء، جهاز متكامل لحماية التراث يعمل كيفما اتفق وهو على وشك أن ينفجر في تعقبه لنهب العراق.

وأصبح هناك سوقان: واحدة للعاديات المسروقة من المجموعات القومية في العراق وأخرى للعاديات المنهوبة من الحفريات السرية في المواقع الأثرية.

إن شراء العاديات من الذين سرقوها من المتحف أو من وسطاء، هو ممارسة جرت مشاهدتها في أفغانستان على أثر سرقة متحف كابول. عندما أطلقت حكومة طالبان نداء لإعادة القطع المسروقة، لقاء مكافأة. خمسة آلاف قطعة أثرية سرقت بهذه الطريقة. وفي سنة 1999، اتهم اللورد رينفرو، من جامعة كيمبريدج، منظمة غير حكومية تدعى جمعية المحافظة على تراث أفغانستان الثقافي، التي تقيم نائبة رئيسها، نانسي دوپري، في بيشاور، باكستان، والتي اشترت قطعاً أثرية مسروقة من متحف كابول. وصرحت نانسي دوپري، في رد لها على سؤال اللورد رينفرو، معترفة بهذه الأعمال، قالت: «إنها تعرف الحجة التي تقول إن شراء العاديات المسروقة يحث على السرقة وعلى نهب المواقع الأثرية»[1]. وتبرئة لذمّتها اعتبرت أن هذه المشتريات أنقذت مجموعات لا تعوض بأثمان «زهيدة».

---

(1) نانسي دوپري «رد على اللورد رينفرو»، كمبريدج، 12/ 4/ 1999.

ويستخدم بياترو كوردوني الحجج نفسها، ولكنها هزيلة، الجميع يعرفون جيداً أن الأسواق هي بتطور مستمر، بفضل المزاحمة. واعترفت نانسي دوبري بذلك ضمناً في «ردها» عندما تحدثت عن المنافسة التي يواجهها بها التجار المستعدون أن يدفعوا في السوق السوداء في بيشاور حتى 250.000 جنيه استرليني للحصول على تحفة فنية.

وثمة، مع ذلك، شيء من السخافة، من السذاجة المربكة عندما نعتقد أنه بالإمكان التعاطي مع اللصوص والنشالين بإثارة الحس الوطني لديهم والشهامة. وشتنا ذلك أم أبينا، لقد وجد، هذه الأيام الأخيرة، في بغداد، سوف قذرة. وبإمكان الجريمة المنظمة، بعد اليوم، أن تأمل في المساومة على الفدية مع دول ليست هي حتماً، سيئة النية، كما مع المتاحف التي تستنزفها. ليست هذه أقل نتائج النهب الذي سمح به جورج بوش الإبن في العراق غداة الغزو الذي أمر به.

وتبقى السوق الثانية، السوق التي تغذيها الحفريات السرية. إنها واسعة جدًّا، تكاد لا تنضب. وامتدادها استثنائي، لأنها، على عكس الأولى، تتصل بالسوق الشرعية. إنها تستطيع توظيفها. بعد مرور عدة سنوات انطلاقاً من الآن، وربما أقل سنجد جداول على ورق صقيل «للفنون السومرية والأكادية

والآشورية» تباع في جميع المحلات الفخمة وصالات البيع ومحال العاديات، وستكون هذه الأشياء العجيبة الصغيرة مزودة بشهادات المنشأ وبالشكل الجيد والمطلوب، وأي شيء لا نجده في خزانة الجدة!.

لكلٌ ختمه الأسطواني. وماذا بعد؟

في أثينا متحف صغير خاص مدهش، قائم في قصر وراء السينتاغما، برلمان اليونان، إنه متحف غولندريس. السيد نيكوس غولندريس كان هاوياً مثل ستافروس نياركوس وأريسطو أوناسيس. كانت هوايته من السيكلاد الذي انتشر بين الألفين الثالث والثاني، قبل عصرنا، في بحر إيجيه. يمكننا أن نشاهد في متحف غولندريس تماثيل مسطحة غريبة ذات شكل مبسّط تذكّر بالإلاهات الأمهات في بلاد ما بين النهرين ومرجيانا. كم نود أن نتعرف إليها. ولكن للأسف إن هذه التماثيل هي نتائج حفريات سرية حرض عليها ولع نيكوس غولندريس، إلى درجة أن المتحف الذي أسسه عاجز أن يشرح متى وأين ولماذا وكيف وبيد من نحتت تماثيله. إنها ذاكرة في حالة تفسخ. إن ما نراه في متحف غولندريس في أثينا، ليس عاديات ذات تاريخ، بل أشياء جميلة، مع انتفاء صفة متحف تراث أنوار القرن الثاني عشر.

وهكذا فإننا نشهد في العراق احتقار علم الآثار. فليس

علماء آل وولي وآل بارو وآل مالوان هم الذين ينقبون المدن القديمة حيث ولدت الحضارة، ولكنهم راوول مونييه ونصابون يديرون الأعمال. لم يعد الفن فناً ولا التاريخ تاريخاً، إنها ليست سوى مواد أولية. ولو كان هيركول پوارو حاضراً لسأل: «إلى متى سوق النهب الإجمالي؟».

الفهرس

خارطة العراق 5
مقدمة 7

القسم الأول
نهب بلاد سومر

الفصل الأول: أور وبيت علماء الآثار 13
الفصل الثاني: شيخ لاغاش 34
الفصل الثالث: مِسْخ جيرسو 49
الفصل الرابع: حارس أوروك 57
الفصل الخامس: علي بابا 64
الفصل السادس: عندما كنتَ ملكاً في بابل 73

القسم الثاني
نهب بغداد

الفصل الأول: ألف اختلاس واختلاس . 91

الفصل الثاني: ولا متحف في العالم 107
الفصل الثالث: العارفون 121
الفصل الرابع: انشغال واشنطن بالأمور الداخلية 133

القسم الثالث
عملية استرداد

الفصل الأول: حجرة البدائع والطرائف 151
الفصل الثاني: العقيد والمستشار 156
الفصل الثالث: إلى منابع آشور 167
الفصل الرابع: الويل للمدينة السفّاحة 185
الفصل الخامس: أرامل نمرود 195
الفصل السادس: شاي أم قهوة؟ 207
الفصل السابع: الأعمال هي الأعمال 226

عويدات للنشر والطباعة 1064/ 2005

239

PHILIPPE FLANDRIN

LE PILLAGE DE L'IRAK

Main basse sur la Mésopotamie

Traduction Arabe
Antoine I. HACHEM

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban

كيف نهب العراق

إن تراث العراق التاريخي والأثري، الذي لا يقل عن تراث مصر قدماً وروعةً هو اليوم مهدد بالزوال. فمنذ نيسان/ إبريل عام 2003 طرد اللصوصُ علماء الآثار من خرائب تلال سومر وأكاد وآشور. وقد عجز الرئيس جورج د. بوش عن استباق نهب المؤسسات الثقافية العراقية الكبرى، مثل المكتبة الوطنية ومتحف بغداد لكنه مع ذلك كان قد أنذر باحتمال حدوث نهب عام، قبل الغزو من قبل القيادة العامة لجيش الولايات المتحدة، من وكالة الاستخبارات المركزية، من وزارة الخارجية والجمعية العلمية بكامل أعضائها. وبالرغم من هذه التحذيرات، فالمؤسسة الوحيدة، التي أمّنت لها الحماية لدى دخول القوات الأميركية إلى بغداد، هي وزارة البترول.

واضطرت حكومة الولايات المتحدة أخيراً أن تتحرك إزاء النقمة التي أثارتها صورة سلبية الجيوش الأميركية لدى عرض نهب تراث بلاد ما بين النهرين على التلفزيون مباشرة. فعمدت إلى إزالة الشكوك بحملة إعادة الآثار المسروقة. وكان على دوائرها الخاصة، بسبب الضغوط الممارسة عليها، أن تفاوض المافيات التي تسيطر اليوم على التجارة العالمية للعاديات، فلم يكن منها إلا أن موّهت حقيقة السرقة المكثفة التي تشمل علم الآثار في العراق.

هذا الكتاب، كيف نهب العراق للصحافي فيليب فلاندران: تشريح لنكبة ثقافية، جدير بالغزوات الكبرى لمدينة أور عند القبور الملكية لنمرود، لكهوف متحف بغداد وخزائن المصرف المركزي العراقي. وهو أيضاً إثارة لما كان يدعى العصر الذهبي لآشور، في زمن ت. لورنس، ليونارد ووللي وأندريه باور و... أغاثا كريستي، عندما كان العالم يرث ذكرى لم تكن فقط توراتية.

ISBN [illegible]